يوميات ثورة الصبار

عبد الرحمن يوسف

يوميات ثورة الصبار

اسـم الكتـاب : يَوْميَّاتُ ثَوْرَةِ الصَّبَّار...
تـــأليف : عبد الرحمن يوسف
الطبعـــة : الأولى ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر ولا يجوز إعادة
طبع أو اقتباس أي جزء منه بدون إذن كتابي من الناشر
الناشـــر : دار الشاعر للنشر والتوزيع
١٨ ب شارع ٢٦ يوليو - وسط البلد - القاهرة
ت : ٠١٢٧٩١٩٧٩٢ (٢+)
الموقع على الإنترنت : www.arahman.net
البريد الإلكتروني : arahman@arahman.net
info@arahman.net
توزيـــع : دار العلوم للنشر والتوزيع
٢٧٧ عمارات امتداد رمسيس - طريق النصر - مدينة نصر
هاتف وفاكس : ٢٢٦٢٩٤٩٩ - ٢٢٦٢٩٦٠٦ (٢٠٢+)
البريد الإلكتروني : daralaloom@hotmail.com

رقـم الإيـداع : ٢٠١١/٩٤٠٣
الترقيم الدولي : ISBN: 978-977-380-301-8
التجهيـزات : 4F تليفون / فاكس ٣٥٤٢٤٦٣٠ (٢٠٢+)

يوميات ثورة الصبار

عبد الرحمن يوسف

دار الشاعر للنشر والتوزيع

دار العلوم للنشر والتوزيع

فهرس

إهـداء ٩

مقدِّمة ١١

الفصل الأول : كيف انطلقت ثورة الصَّبَّار ؟

* من أين نبدأ ؟ ١٩
* لحظة الانطلاق في عيد الشرطة ٢٥ يناير ٢٦
* الخروج من الحصار ٣٠
* لحظة دخول الميدان ٣٣
* إذاعة التغيير بميدان التحرير ٣٧
* بداية الهجوم ٤٢

الفصل الثاني : جمعة غضب لكل الشعب

* التظاهرات مستمرة ، والبرادعي في القاهرة ٥١
* ليلة جمعة الغضب ٥٥
* جمعة الغضب ، تاريخ جديد لمصر ٥٦
* معركة ميدان الجيزة ٦٠
* انتهاء المعركة ، وبوادر أخلاق الميدان ٦٧
* مشاهد عامة من القاهرة ٦٩
* الخطاب الأول لمبارك ، ونتائجه ٧٢

الفصل الثالث : معركة الصبر

* الليلة الأولى في ميدان التحرير ٧٧
* بداية الاعتصام ، والخطوة التالية ٧٩
* الصحافة المصرية والثورة ٨١
* ميدان التحرير « المدينة الفاضلة » ! ٨٣
* حصار الميدان ، وشعور نبتة الصَّبَّار ٨٨
* الدكتور البرادعي في ميدان التحرير ٨٩
* كيف تحايلنا على الجيش لإعلان موقفه ؟ ٩١
* المليونية الأولى ، وخطاب مبارك الثاني ٩٣
* انقسام الشعب بعد الخطاب الثاني ٩٤

الفصل الرابع : العنف لن يفيد

* موقعة الجمل ، بطولة شعب ! ١٠٤
* بطولة ضابط جيش ١٠٦
* استمرار المعركة حتى الفجر ١٠٧
* الفصل الأخير في معركة الجمل تحت تمثال الشهيد ١١١
* الرصاص الحي يحسم المعركة للثوَّار ١١٣
* اختبار صعب للإعلام المصري ١١٦
* المستشفى الميداني ، بطولة في الظل ١١٨

الفصل الخامس : نضال ، وسياسة

* لقاء شبابي في منزل البرادعي ١٢٦
* محاولة للذهاب إلى البيت ١٣١
* جمعة الرحيل ، ودور رجال الدين ١٣١
* اجتماع مهم في عيادة الدكتور عبد الجليل مصطفى ١٣٤
* الاجتماع مع الفريق شفيق ١٣٦
* لقاء اللواء عمر سليمان ١٤٠
* اجتماع موسَّع لم نتوقعه ! ١٤٢
* اجتماع ضيق مع عمر سليمان ١٤٤
* مشادة في عيادة الدكتور عبد الجليل ١٤٨

الفصل السادس : الانتصـــار

* ثمرات الاجتماع مع عمر سليمان تظهر ١٥٥
* الميدان يبدع ١٥٥
* توتر الأيام الأخيرة ١٦٠
* جمعة الشهداء ، وخلع الرئيس ١٦٢

إهـــداء

إلى شهداء ثورة الصَّبَّار الأبرار ...

وإلى المصابين والجرحى ...

وإلى شعب مصر العظيم ...

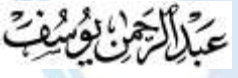

مُقَدِّمَة

في ميدان التحرير ، حاصرونا ، وحاولوا منع الماء والغذاء والدواء ، ونحن صمدنا معتصمين ...!

وقفنا كنبتة الصَّبَّار في الصحراء ، هذه النبتة الأبيَّة التي تعيش رغم انعدام الماء لسنوات وسنوات !

الصَّبَّار يواجه كل حيوان يحاول أن يأكله بالشوك ، وقد ذاق من هاجمنا شوكنا ...!

ولنبتة الصَّبَّار زهور وثمار ، وها نحن نحاول أن نمنح أرضنا وشعبنا وأمتنا زهورنا وثمارنا ...!

هذا هو إحساسي حين بدأ الاعتصام في ميدان التحرير في ٢٨ يناير ٢٠١١ .

إنها ثورة الصَّبَّار ...!

هذه المذكرات عبارة عن بعض الخواطر التي كتبتها أثناء أيام الاعتصام في ميدان التحرير خلال الثورة المصرية العظيمة ، وكنت قد بدأت التدوين في يوم جمعة الغضب ٢٨ يناير ٢٠١١ ، وظللت أدوِّن إلى فجر ٣ فبراير ، وهو يوم معركة الجمل .

ولكن ما كتبته ضاع مني أثناء الكرِّ والفرِّ في هذه الليلة الليلاء ، وأصبح أمامي تحدٍّ يفرض عليَّ أن أستعيد الكثير من التفاصيل ،

بالإضافة إلى استعادة المشاعر والأحاسيس التي صاحبت المرء خلال الأحداث ، وقد قررت أن أخوض هذا التحدي ، وبدأت الكتابة من جديد ، وأتمنى أن أكون قد وفقت فيه .

وقد كان المفترض أن تنشر جريدة « المصري اليوم » هذه المذكرات على شكل حلقات يومية ، ولكن تمَّ تقطيع المذكرات وتوزيعها على أكثر من شهر بدلاً من النشر اليومي المتواصل الذي اتفق عليه ، الأمر الذي أدى إلى صعوبة متابعة القارئ لها ، وهو ما أدى لتأخر صدور هذا الكتاب .

قد يرى بعض القراء الكرام أنني لم أذكر الكثير من التفاصيل التي حدثت بالفعل خلال أحداث الثورة ، وأنا هنا أحب أن أوضح الفرق بين كتابة المذكرات ، وكتابة التاريخ . أنا لست مؤرخًا ...!

أنا أكتب ما رأيته بنفسي في أغلب الأحيان ، أو ما رآه الآخرون في تفاصيل قليلة جدًّا .

إن وظيفة كاتب المذكرات أن يُقدِّم ما رآه ، لا أن يُقدِّم صورة كُليَّة للحدث ، وهذه المذكرات هي (المادة الخام) للتأريخ ، ومن خلال جمع مذكرات أشخاص كثيرين يستطيع المؤرِّخ أن يصل للصورة الكُليَّة ، بالإضافة إلى الوثائق والصحف ... إلخ.

وبالتالي ، تصبح العملية أشبه ما تكون بعمل المصوِّر (الكاميرا مان) ، والمُخرج ...!

أنا (كاميرا مان) ، وما قرأه القارئ الكريم ، هو ما التقطته كاميرتي الخاصة !

المؤرِّخ ، يجمع كل ما التقطته الكاميرات ، ليصنع منها فيلمًا متكامل الأحداث ، بعد أن يقوم بعملية المونتاج ...!

وبالتالي ، لا مجال لِلَوْمي في تجاهل أحداث حدثت ، لأني لم أكن شاهدًا عليها .

لامني البعض كذلك على أنني قد ذكرت بعض الأشخاص بكثرة خلال الحلقات ، ولامني البعض على أنني قمت بعمل (دعاية) انتخابية للدكتور البرادعي في ثنايا هذه المذكرات .

وأنا أقول – بكل الصدق – لقد كتبت ما حدث ، ولم أقصد سوى أن أقول الحقيقة ، فإن كان ذلك ذمًّا أو مدحًا في أشخاص ، فذلك ليس ذنبي ، لأنني لم أذكر سوى ما حدث ...!

لامني البعض أيضًا على لهجتي القاسية ضد الرئيس المخلوع حسني مبارك ، بل إن بعض القراء الكرام أشاروا إلى أن ذلك يعتبر شكلاً من أشكال الشجاعة المتأخرة ، أو ادعاء البطولة بعد أن سقط العجل ، وكثرت سكاكينه ، وأنا هنا لا أملك سوى أن أحيل كل هؤلاء القراء إلى موقعي على الشبكة العنكبوتية ، وإلى دواويني ، وإلى مقالاتي لكي يتأكدوا أنني وقفت ضد الرئيس المخلوع بالنثر والشعر ، في العالَم الافتراضي والعالَم الحقيقي ، وذلك منذ عام ٢٠٠٤ ...!

وبالتالي لا يحق لأحد أن يلوم عليَّ قسوتي عليه بعد أن سقط ، طالما قد اشتبكت معه وهو في قمة القوة والسلطة ...!

طالبني البعض بأن أتحدث في مواضيع كثيرة ، مثل : كيف قامت هذه الثورة من الأساس ؟ ما دور الحركات الاحتجاجية المختلفة في قيامها ؟ وكيف حدث التراكم الذي أدى لهذا التحرك الشعبي الرائع ؟ ما دور الشخصيات الوطنية في نجاح الثورة ؟ وإلى غير ذلك من الأسئلة المهمة .

وأنا بدوري أوضح أنني قد أفصِّل ذلك في كتاب آخر يحاول أن يشرح (كيف حدث التغيير في مصر) ، وهذا الكتاب - إذا كتبته - سأحاول أن أحكي فيه قصة التغيير في مصر ، كما شاركت فيها ، وكما رأيتها خلال العقد الماضي .

في النهاية ، أحب أن أرد على ما اتهمني به البعض بأنني قد أخطأت في بعض تصرفاتي خلال أحداث هذه الثورة ، بأنني أشكر وأُقدِّر كل الذين وجهوا لي هذا النقد ، ولكني ألوم الذين شككوا في نيتي ، أو رمَوني بتهمة حب الظهور ، أو الرغبة في منصب !

أنا إنسان ، أُخطئ وأُصيب ، ولكني أزعم أنني في كل ما فعلته لم أكن أريد إلا الإصلاح ، ولم يكن لي مطمع شخصي .

إن هذه المذكرات ، وكل ما اجتهدت في تقديمه - أنا وغيري - خلال هذه الثورة ، ليست سوى جهد قليل بجوار أُناس قدموا حياتهم ثمنًا لحرية هذه الأمة .

في النهاية ... لا بدَّ أن أشكر كل الذين ساعدوني في كتابة هذه المذكرات من خلال تذكيري ببعض الأحداث ، ومن خلال إمدادي ببعض الصحف والوثائق التي احتجتها في لحظات الكتابة ، وأولئك الذين

تكرموا بمراجعة ما كتبته قبل أن ينشر ، وكلهم أصدقاء أعزاء ، وأساتذة أجلاء ...

لقد كان لهذه المساعدات قيمة كبيرة بعد أن فقدت أغلب ما كتبته كما سبق أن ذكرت ، ولولا هذه المساعدات التي تكرموا بها لَما ظهرت هذه المذكرات للنور بهذا الشكل .

أكرر شكري لكل مَن ساهم في هذه المذكرات ، ولكل مَن قوَّم فيها شيئًا ، ولكل مَن قرأها وأعجبته ، وأحترم كل مَن اختلف معها ، وأتمنى أن يكون لي رصيد عند المختلفين ...

والله يسدد الخطا ...

عبدالرحمٰن يوسف

بيت القصيد بكفر حكيم

الجيزة ٢٠١١/٥/١

الفصل الأول

كَيْفَ انْطَلَقَتْ ثَوْرَةِ الصَّبَّار؟...

نَصْرٌ ...

هُزِمْنَا دُهُورًا ولَمْ نَتَأَقْلَمْ ...!
لأَنَّ هَزِيمَتَنَا عَارُ مَنْ فِي الشُّعُوبِ تَحَكَّمْ ...
تَمُرُّ أُلُوفُ السِّنِينَ عَلَيْنَا ولَكِنَّنَا أُمَّةٌ لَيْسَ تَهْرَمْ ...
هُوَ النَّصْرُ يَأْتِيكَ يَحْبُو رُوَيْدًا رُوَيْدًا
وأَنْتَ إلى حِضْنِهِ تَتَقَدَّمْ ...
هُوَ الشَّعْبُ يَدْفَعُ مَهْرَ الحَيَاةِ دَمًا حِينَ يَأْلَمْ ...
طَرِيقُ انْتِصَارِ الشُّعُوبِ بِدَايَتُهُ حِينَ تَجْرُؤُ أَنْ تَتَكَلَّمْ ...
هَزَائِمُنَا نِعْمَةٌ
فَالطَّرِيقُ إلى النَّصْرِ نُدْرِكُهُ
حِينَ نُهْزَمْ ...!

شعر : عبدالرحمن يوسف

أسيوط ٢٠١١/٥/٤

*** من أين نبدأ ؟**

يحتار المرء من أين يبدأ الكتابة في مثل هذا الحدث الجلل ...!

ذلك أن كل التفاصيل مهمة ، ولكن لا يمكن كتابتها كلها ، لذلك لا بد من عملية اختيار لما يحكى .

لذلك سأبدأ من لحظة اليأس الكبرى ، أي بعد أن شعر غالبية الناشطين وربما غالبية المصريين بأنه لا أمل في تغيير أو إصلاح في المدى القريب ، وكانت هذه اللحظة بعد الانتخابات البرلمانية في نوفمبر ٢٠١٠ .

لقد أصبح مبارك يعامل الشعب على أنه (خد متعوِّد عَ اللطم) كما يقول المثل ، وكان يعامل الأمة على أنه (المانح المانع) ، أو كما يقول المثل : (حسنة ... وأنا سيدك) ، وكان أدقَّ تعبير عن كون مبارك رئيسًا لمصر ، هو قول المثل : (زبَّال ، وفي إيده وردة) !

كنت أعتقد أن أسوأ انتخابات في تاريخ البشرية هي تلك الانتخابات التي أجراها نظام مبارك في عام ١٩٩٥ ، ولم أكن أتخيل أن القدر يخبئ لنا انتخابات أسوأ منها !

كنت قد كتبت قبل تلك الفترة عدة مقالات عن التفاؤل ، وكيف أن التغيير اقترب ، وكيف أننا ينبغي أن نعدَّ أنفسنا لأحداث كبيرة جدًّا ستقع في وقت قريب جدًّا .

بعد الانتخابات كتبت مقالة بعنوان : « بل قد تضاعف تفاؤلي » ، وجاء فيها :

[« يسألني صديق عزيز : « أما زلتَ متفائلاً ...؟ ».

الحقيقة أن هذا السؤال قد سألنيه عشرات الكبار والصغار ، سألنيه مَن يعرفني ومَن لا يعرفني ، والسبب ما شاهده الناس خلال اليومين الماضيين فيما يسمى « الانتخابات البرلمانية » ، أعتقد أن تفاؤلي قد تضاعف عدة مرات ، ولذلك أسبابه المنطقية أيضًا :

السبب الأول : أن ما حدث خلال الشهرين الماضيين يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن رؤيتنا للتغيير كانت هي الرؤية الدقيقة المعبرة عن الواقع المصري .

هناك مَن قال إننا لا بد أن نشارك ، وأن المقاطعة سلبية ممقوتة ، ونحن قلنا للجميع إن مشاركتكم لن تضيف شيئًا سوى شرعية الانتخابات للحزب الحاكم ، بحيث تكتمل الصورة الديمقراطية الشكلية التي يحاول إثباتها للأنظمة الغربية .

السبب الثاني : أن ما حدث أثبت أنه لا مجال للتغيير عن طريق الانتخابات ، ولا يمكن التغيير وفقًا للآليات الموجودة التي وضعها نظام مبارك ، وأنه لا حل إلا بتعديل قواعد اللعبة ، وخلاصة تلك التعديلات موجودة في بيان التغيير .

السبب الثالث : أن ما حدث من الممكن أن يكون ذخيرة حيَّة للتغيير ، ويمكن – إذا أحسنّا استغلال ذلك – أن يكون سببًا لترشيد تمرد الناس وتجميعه في تيار واحد .

السبب الرابع : أن ما حدث سوف يعيد تيارات معارضة لها وزنها إلى طريق التغيير الصحيح ، بعد أن أخذت تجربتها ، وأكلت (العلقة) ، وأصبحت في حرج سياسي كبير أمام أعضائها وأنصارها ...!

للأسف ... هناك ظواهر سلبية ...!

فبعض الشباب اليوم اتخذ عدة ردود فعل ، فأصبحوا عدة أنواع ...

النوع الأول : هو النوع الذي بدأ بإطلاق الشتائم في جميع الاتجاهات ، وكأن التجرؤ على الآخرين سوف يحل مشكلة مصر !

وهذا النوع مشكلته أخلاقية بالدرجة الأولى ، فهو لا يتورع عن شتم مَن هو أكبر منه سنًّا ، بدلاً من محاولة الدخول في حوار عقلاني .

النوع الثاني : اعتبر هذه المعركة نهاية المطاف ، واعتبر أن الدنيا انتهت ، وأن القيامة قد قامت ، وأنه لا فائدة من أي سعي للتغيير ...!

ولم ينتبه كيف أن له إخوة في العراق وفلسطين يقاومون بكل شجاعة برغم كل ما يحبطهم ويثبطهم !

النوع الثالث : هو الذي يرى الأحداث في سياقها الصحيح ، وهو النوع الذي يستوعب قضية التغيير بشكل سليم ، ويعلم أن ما شاهدناه في مهزلة انتخابات البرلمان ليس أكثر من جولة ، وأننا لم نخسر هذه الجولة ، بل من الممكن أن نكون قد ربحناها ...

لقد أثبتنا للعالم كله أن التغيير بدون تغيير قواعد اللعبة مستحيل ...!

الكرة في ملعبنا الآن ... فلننطلق لجمع التوقيعات ، ولخلق توعية سياسية بمشروع التغيير السياسي السلمي ...

لقد يئس الناس من أي تغيير يأتي على يد النظام الحالي ، ولم ييأسوا من التغيير مطلقاً ، بإمكاننا أن نستخدم يأسهم في خلق تيار يعمل بشكل إيجابي » .

ثم ختمت مقالتي بعدة جمل ما زلت أذكرها :

« يا شباب التغيير... الإنسان اليائس لا يملك شيئًا يخسره ...!

الإنسان اليائس مقاتل شرس ...!

اقرؤوا ما كتبه (صن تزو) في كتابه « فن الحرب » ...!

يا شباب التغيير ...

لا تسألوني عن تفاؤلي ...

لأنني أعلنها أمامكم جميعًا بكل صدق ...

لقد تضاعف تفاؤلي ، وأصبحت متأكدًا أننا على الطريق الصحيح ...!

عاشت مصر للمصريين وبالمصريين »] .

كانت ردود الأفعال على هذه المقالة سيئة جدًّا ، فقد سخر مني الكثير من الأصدقاء ، لدرجة أنني اضطررت لحذف بعض التعليقات

على هذه المقالة في صفحتي على الفيس بوك ، نظرًا لأن السخرية فيها تجاوزت حدود اللياقة في بعض الأحيان .

حدث بعد ذلك بأسبوعين أن بدأت ثورة تونس العظيمة !

لقد تابع المصريون ما حدث في تونس بشكلٍ واعٍ ، واعتبروا أنهم يشاهدون تدريبًا أو (بروفة) على ما يمكن أن يحدث في مصر إذا اتحد المصريون .

وبالفعل ، قرر المصريون أن يتخطوا حواجز الخوف ، وقرر المصريون أن اللحظة المناسبة قد جاءت ، وأن هذه اللحظة ... الآن .

كانت أول مناسبة لتظاهرة سياسية بعد أن نجحت ثورة تونس في طرد ابن علي في ١٤ يناير ٢٠١١ ، أقول كانت أول مناسبة هي عيد الشرطة في ٢٥ يناير .

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يدعو فيها الناشطون إلى وقفة اجتجاجية أو تظاهرة في عيد الشرطة ، بل - حسبما أذكر - كانت هذه السنة الثالثة التي يتم فيها الدعوة لمثل هذه المناسبة .

بالنسبة لي ، كنت أرى ما حدث في تونس وكأنه يحدث في القاهرة ، وأصبحت متأكدًا تمام التأكد أن النهاية قد حانت ، وأننا في الأيام الأخيرة من عمر نظام مبارك ، لذلك كتبت قصيدة « الطريدة » في نفس يوم هروب ابن علي ، وألقيتها في نقابة الصحفيين بالقاهرة في يوم ٢٠

يناير على ما أذكر ، وقلت في هذه القصيدة كل ما جرى قبل أن تبدأ الأحداث .

جاء في هذه القصيدة :

مَاذَا بِرَبِّكَ تَنْتَظِرْ ...؟
أَنْ يُصْدِرَ الرَّحْمَنُ أَمْرًا بانْتِدَابِكَ فَوْقَنَا رَغْمَ الثَّمَانينَ التي بُلِّغْتَهَا ؟
هَلْ خَبَّأَ الحُرَّاسُ عَنْكَ سُقُوطَ بَعْضِ مَمَالِكٍ مِنْ حَوْلِنَا كم زُرْتَهَا ؟
لَمْ يَنْتَبِهْ جَلادُهَا لإِشَارَةٍ كَبِشَارَةٍ
قَدْ أُطْلِقَتْ بِحَرَارَةٍ وَجَسَارَةٍ وَمَرَارَةٍ
مِنْ قَلْبِ مَنْ مَلُّوا الحَيَاةَ مُحَدِّقِينَ بِذَلِكَ الوَجْهِ العَكِرْ ...!
لَنْ يُصْدِرَ الجَبَّارُ أَمْرًا بالخُلُودِ سِوَى لأَرْضٍ خُنْتَهَا ...
يَا أَيُّهَا العُقَلاءُ هَلْ مِنْ مُدَّكِرْ ...؟!

❋ ❋ ❋

مَاذَا بِرَبِّكَ تَنْتَظِرْ ...؟
أَنْ يَكْسِرَ الثُّوَّارُ بَابَكَ ؟
حينَهَا هَيْهَاتَ تَقْدِرُ أَنْ تُمَثِّلَ فَوْقَ شَاشَاتِ القِوَادَةِ
دَوْرَ غَلابِ العِبَادِ المُنْتَصِرْ ...!
لَوْ حَاصَرَ الثُّوَّارُ قَصْرَكَ فِي الظَّلامِ فَسَوْفَ تَخْذُلُكَ الحِرَاسَةُ والحَرَسْ ...

سَتَصِيرُ قِطًّا عَلَّقَ الفِئْرَانُ فَوْقَ قَفَاهُ فِي الليلِ الجَرَسْ ...
لاحِظْ فَإِنَّ هُنَاكَ بَعْضَ مَمَالِكٍ
لَمْ يَنْفَعِ السُّلْطَانَ فيها كُلُّ أَسْوَارٍ وأَجْنَادٍ فَغَادَرَ وانْتَكَسْ ...
هِيَ سُنَّةٌ للهِ تَصْدُقُ دَائِمًا
يَتَكَلَّمُ الثُّوَّارُ بالحَقِّ المُبِينِ
تَرَى البَنَادِقَ قَدْ أُصِيبَتْ بالخَرَسْ ...!

* * *

لا ننسى أن المصريين كانوا قد وصلوا إلى درجة من درجات اليأس المطبق ، وفقدوا الثقة في كل شيء جميل ، وفي أي غدٍ مشرق ، والأهم من ذلك أنهم فقدوا الثقة في أنفسهم ، فأصبحوا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم مجموعة من « السكَّان » ، جمعتهم الظروف في مكان واحد ، وليسوا شعبًا عريقًا عظيمًا ، يركب منذ آلاف السنين سفينة واحدة تبحر في بحر الحياة ، وكل من يخرم فيها يهدد الجميع بالغرق !

وبسبب هذا اليأس ، تعامل البعض مع الدعوة التي خرجت إلى التظاهر في عيد الشرطة الذي يوافق ٢٥ يناير ٢٠١١ بشكل روتيني ، فقالوا إنها ستكون مناسبة مثل كل المناسبات ، وإن المبالغة في تصويرها وكأنها ثورة محددة الموعد يعتبر تسطيحًا لأمر شديد الأهمية !

لذلك هاتفت بعض الناشطين لكي يغيِّروا نظرتهم لهذه المناسبة ،

وكانت حجتي في ذلك أن ما حدث في تونس جعل الملايين من المصريين يصدقون أن إرادة الشعوب لا تقهر ، وأن هناك احتمالاً أن نرى مفاجأة كبيرة في هذا اليوم ، وقد استجاب لي أغلب الناشطين الذين حدثتهم ، وقرروا إعادة النظر في المشاركة في هذا اليوم .

كانت أهم مجموعة غيَّرَتْ رأيها في هذا الأمر هي الحملة الشعبية لدعم البرادعي ومطالب التغيير ، وكان منسقها العام الدكتور مصطفى النجار .

أذكر أنني هاتفته بعد أن علمت موقف الحملة المتردد ، وهاتفت أيضًا الشاب النابه الناشط محمود عادل الحتة .

* لحظة الانطلاق في عيد الشرطة ٢٥ يناير

قررت أن أشترك في هذا اليوم مع الحملة الشعبية لدعم البرادعي ومطالب التغيير ، تلك الحركة الشبابية النقية التي شرفت بالمشاركة في تأسيسها ، وشرفت بأن أكون منسقها العام لعام كامل انتهى في ديسمبر ٢٠١٠ ، وقد اختار الشباب أن يقيموا وقفة احتجاجية أمام نقابة الأطباء « دار الحكمة » ، وكان الترتيب يقتضي أن يكون المكان سِرِّيًّا ، لذلك لم أعلم بمكان التجمع إلا قبل الوقفة بحوالي ساعة أو ساعتين ، وقد أخبرت عشرات الناشطين الذين أرادوا أن ينضموا لهذه الوقفة أن يتصلوا بي صباح الثلاثاء ٢٥ يناير لكي أخبرهم بمكان الوقفة .

التقينا قبل التظاهرة في مقهى في شارع القصر العيني ، وكان معي في هذا اليوم الفنان « عباس أبو الحسن » ، وهو ممثل وسيناريست متميز ومعروف .

وكان معي أيضًا صديق من أصدقاء العمر ، هو الأستاذ راجي جمال الدين سليمان ، وهو محامٍ نابه ، ومصريٌّ أصيل .

لقد حضر راجي استقبال الدكتور البرادعي في مطار القاهرة في فبراير ٢٠١٠ ، وموَّل بعض نشاطات الحملة الشعبية في السِّرِّ ، وكان موجودًا خلال هذه الثورة منذ يومها الأول ، وإلى يوم خلع الرئيس ، وكان يكره النظام الحاكم كرهًا شديدًا ، كل ذلك برغم أن عمه هو اللواء عمر سليمان ...!

تحركنا عند الموعد المحدد من المقهى إلى نقابة الأطباء . السِّرِّية التي أحيط بها مكان التجمع نتج عنها أننا حين وصلنا إلى النقابة لم نجد أي شرطة ، بل وجدنا المكان خاليًا لنا تمامًا ، وذلك أتاح لنا فرصة التجمع ، وتكوين نواة لتظاهرة كبيرة ، وبالفعل ... تكونت هذه النواة من عدة مئات ، ثم استمرت في التضخم حتى بلغت ما يقرب من حوالي ألفي متظاهر ، غالبيتهم العظمى من الشباب ، بنين وبنات .

بعد أن بدأنا بالهتاف حضرت الشرطة ، وقامت بعمل كردون أمني (محترم) من حولنا ، بل إنهم منعوا حركة سير السيارات في شارع القصر العيني .

بدأت الهتافات : عيش ، حرية ، كرامة إنسانية ...

وكنت أردد مع المرددين هتافًا قلت فيه :

يا عسكري يا أبو بندقية ، إنتَ معايا والا عليَّ ، إنتَ بتحمي في الحرامية ...!

وهو هتاف مقتبس من أغنية كتبها الشاعر إبراهيم عبد الفتاح .

وكنت أنظر في عيون المجندين والضباط ، خصوصًا عند جملة : إنتَ بتحمي في الحرامية ، فأرى في عيونهم حزنًا وخجلاً يصل لدرجة الخزي ...!

كنت قد قلت في وقفات سابقة ومنذ سنوات إن رجال الشرطة سيتظاهرون معنا قريبًا !

وقلت في قصيدة الطريدة :

يَا أَيُّهَا الجِنِرَالُ كُلُّ الجُنْدِ في فَقْرٍ
وإِنَّ الفَقْرَ رَابِطَةٌ تُوَحِّدُ أَهْلَهَا في وَجْهِ بَطْشِكْ ...!

وقد تحقق ما قلته بفضل الله ....!

حضر الوقفة مجموعة من الرموز والمثقفين ، من أهمهم د. عبد المنعم أبو الفتوح ، والكاتب الساخر بلال فضل ، والسيناريست محمد دياب ، والمُخرج عمرو سلامة ، والمطرب المتميز حمزة نمرة ، والدكتور

عبد الجليل مصطفى ، والدكتور محمد أبو الغار ، وغيرهم .

كانت الهتافات مركزية ، يقودها الناشط محمود عادل ، مؤسس جروب البرادعي رئيسًا .

ثم بدأنا بإلقاء الكلمات ، بدأت أنا ، وكانت الكلمة في أغلبها موجهة إلى هؤلاء الزبانية الأغبياء الواقفين أمامنا ، يحمون قاتلَهُم ، من مخلِّصِهم !

ثم توالت الكلمات ، عبد المنعم أبو الفتوح ، وبلال فضل ، الذي ألقى كلمة شديدة التأثير ، صفق لها الحاضرون طويلاً .

بعد مرور ما يقرب من ساعتين اتضح أننا أصبحنا في فخ ، فلا نحن نستطيع الحركة ، لأن الحصار الأمني كبير جدًّا ، ولا نحن نستطيع أن نزيد حجم التظاهرة ، وذلك بسبب منع الناس من السير في الشارع سواء بسياراتهم ، أو راجلين !

وبدأت تصلنا أخبار من أماكن شتى ، كلها تشير إلى أن آلاف المتظاهرين يزحفون من أماكن مختلفة إلى ميدان التحرير ، لذلك اقترحت أن نكسر الطوق الأمني ونتجه إلى الميدان ، وكان ذلك قرارًا صعبًا ، لأننا نرى أمامنا جنودًا مدججين بالسلاح والغباء ، جاهزين للفتك بنا إن حاولنا التحرك .

كان هناك رأيان في تلك اللحظة ، الرأي الأول : أن نتفاوض مع

الشرطة لكي يسمحوا لنا بالمرور ، وكانت النتيجة – حين تفاوضنا مع الشرطة – أن الشرطة تكرمت بالسماح لنا بالمرور فردًا فردًا ، أي بدون تجمعات !

لذلك انتصر الرأي الثاني ، أي الرأي الذي يرى أنه لا بد من كسر الكردون بالقوة .

*** الخروج من الحصار**

بدأت – أنا وغيري – ممن نَفَدَ صبرهم من هذا الوضع المتجمد بكسر الحصار ، وكانت النتيجة أننا اشتبكنا مع الأمن ، وحدثت بعض الإصابات ، وحين انكسر الطوق جرى الجميع باتجاه ميدان التحرير .

وكان من أهم الأشخاص الذين أصيبوا المخرج السينمائي عمرو سلامة ، إذ أمسك به رجال الأمن ، وأوسعوه ضربًا ، وكانت إصاباته بالغة السوء ، بل أظنه كاد يُقتل في مدخل إحدى العمارات في شارع القصر العيني .

حين بدأنا بالجري ، وجدنا أمامنا تشكيلات ضخمة جدًّا من شرطة مكافحة الشغب ، وكان ذلك طبيعيًّا ومتوقعًا ، لأننا نسير في اتجاه مبنى مجلس الشعب ، لذلك لم نجد خيارًا سوى أن ننحرف يسارًا إلى ضاحية جاردن سيتي ، ونصل بعد أن نعبرها إلى الكورنيش ، ثم إلى ميدان التحرير .

ولكن ما حدث ، أن شرطة مكافحة الشغب حاصرتنا في محطة للوقود في شارع القصر العيني ، وتجمعنا عدة مئات ، وأمامنا جيوش من الشرطة بهراواتهم السوداء يقفون مستعدين للفتك بنا .

مع بداية الحصار حاول بعض ضباط أمن الدولة بملابسهم المدنية أن يضربوا المتظاهرين ، وفوجئوا بمقاومتنا الشديدة ، أنا شخصيًّا ضربت أحدهم وهو يضرب أحد الشباب بعصا غليظة في يده ، إذ أخذت العصا منه وضربته بها ، فتسبَّب ذلك في حالة من التجمد في الموقف ، فالشرطة لم تكن تصدِّق أن هناك مَن يجرؤ على مقاومتها بهذه البسالة ، ونتج عن ذلك أن تمكن الشباب من الصعود إلى مبنى موجود في المحطة ، وظللت أنا وعدة أفراد واقفين أمام طابور الشرطة .

وفجأة ، قفز رجل من العاملين في المحطة محذرًا الجميع مبيِّنًا لنا أننا نقف على خزان البنزين الرئيسي في المحطة ، وأننا جميعًا في خطر كبير !

كان ذلك مخرجًا لنا ، فجاء الفنان المصري « عباس أبو الحسن » وتفاوض هو وراجي سليمان مع الضابط بشأن خروجنا ، ونجحت المفاوضات ، وخرجنا من المحطة إلى ضاحية جاردن سيتي .

وعند خروجنا ، حصل بيني وبين ضابط شاب احتكاك لا أدري كيف بدأ ، ولكني أظن أن كتفي لمسه وأنا أسير خارجًا ، فما كان منه إلا أن دفعني بقوة ، فوقفت ، ونظرت إليه في عينيه ، فسبني بالأم !

حينها قلت له بكل أدب وغضب : هل تعرف أمي ؟

فسبها مرة أخرى ، فقلت له ما معناه إنك شخص تافه ، وأنا أقترب منه ، وفي يده هراوة ، ووقفت أمامه قائلاً : لو كنت رجلاً ... فاضرب !

فوقف متسمرًا وهو رافع عصاه ، ويده ترتجف دون أن يتمكن من الضرب ، وبعدها أتى عباس أبو الحسن ، وراجي ، ومشينا .

أذكر هذه الحادثة الآن وكأنها إرهاصات الهزيمة النفسية لجهاز الشرطة ، ذلك الجهاز الذي كان يعتمد على خوف الناس ، وعلى تراجعهم أمامه ، وحين تجرأ الناس انهارت كل أجهزة الشرطة في وقت قياسي .

هذا الضابط الواقف أمامي ليس إلا أنموذجًا على نوعية الضباط في شرطة مكافحة الشغب في تلك اللحظة من تاريخ مصر ، إنه ضابط مسلح ، يمسك بعصا ، وخلفه آلاف الجنود ، ولكنه أجبن من أن يضرب شخصًا أعزل لا يملك شيئًا من السلاح سوى صفاقة تطل من عينيه ، وثباتٍ يتدفق من لسانه .

كانت مفارقة مضحكة ، إذ لا يمكن المقارنة بين الطرفين ، ولكن الخائف كان الشرطي ، لا المتظاهر ...!

استغرقت رحلتنا إلى ميدان التحرير حوالي ساعة ، وكانت محفوفة بالمخاطر ، لأننا كنا تائهين في ضاحية جاردن سيتي ، وكنا نحاول أن

نتجنب العديد من المصائب في رحلتنا ، أهمها مبنى السفارة الأمريكية ، وكذلك السفارة الكندية ، والبريطانية ...!

كان هناك أيضًا حراسات مخصصة لبعض الكنائس ، ومن الممكن أن نشتبك معها لأي حماقة مقصودة أو غير مقصودة .

كنا خائفين أن نحتك بأي شكل من الأشكال مع الحراسات المخصصة لهذه الأماكن الحساسة .

وبفضل الله ، وجدت ضمن المتظاهرين الدكتورة مديحة دوس ، وهي من سكان جاردن سيتي فتمكنت من إرشادنا إلى كيفية الوصول إلى الكورنيش عبر متاهات جاردن سيتي ، وسرنا حتى وصلنا إلى ميدان الشهداء « التحرير سابقًا » ، من أسفل كوبري قصر النيل .

*** لحظة دخول الميدان**

بالنسبة لي... كانت هذه اللحظة من أعمق لحظات عمري...!

لقد كان منظر الميدان وهو ممتلئ بعشرات الآلاف من المتظاهرين يبشر بالفجر الذي طال انتظاره ، وحين دخلت الميدان ووجدت الشباب يهتفون فرحًا بقدوم فوج جديد إليهم ، ويستقبلونني بالبشر والسرور ...

حينها بكيت !

وبدأت أصرخ بشكل هستيري ، مصر عظيمة ، نحن شعب عظيم ، أي كلب يظن أننا لا نثور فسنضربه بالحذاء ، ما أجمل مصر ...

كل ذلك وأنا أبكي ، وحولي مجموعة صغيرة من الشباب الذين اشتركوا معي في هذه اللحظة الممتدة .

أذكر في هذه اللحظة المهندس ياسر الهواري وهو يحتضنني وعيناه تدمع من شدة التأثر أيضًا .

الميدان في تلك اللحظة كان ملكًا لنا ، لا سيارات ، ولا شرطة مكافحة شغب في داخله ، الشرطة تقف على مداخل الميدان ، دون أن تهاجمنا ، أو بعد أن هاجمتنا وصددنا هجومها ، وقد تم توثيق هروب الشرطة أمام المتظاهرين عبر كاميرات المحمول ، ونشر ذلك على الفيس بوك ، فكان له أبلغ الأثر في تظاهرات جمعة الغضب بعدها بأيام .

من أغرب ما حدث في هذا اليوم ، أننا حين وصلنا إلى الميدان ، قَرَّرَ العقل الجمعي للشعب المصري العبقري أن يحول الهتاف من « عيش ، حرية ، كرامة إنسانية » ، إلى هتافات سياسية بحتة تطالب برحيل الرئيس ، وسقوط النظام ، أو لِنَقُلْ توارت الهتافات الأخرى ، ولم يعد هناك من هتافات سوى المطالبة برحيل الرئيس وسقوط النظام ...!

كانت هناك متعة اكتشاف المكان ، بمعنى أن هذا المكان من النادر أن يمشي فيه المرء على رجليه بهذه الحرية ، وبهذا الانطلاق ، لأنه مكان مزدحم ليل نهار بالسيارات والمارة .

أنا شخصيًّا كانت عندي عقدة من ميدان التحرير ، لأن جميع التظاهرات التي دعونا لها في ميدان التحرير خلال السنوات الماضية قد فشلت .

وكان من أهم أسباب فشلها شكل الميدان ، حتى إنني أعتقد أن الذي صمّم هذا الميدان مخبر ، لا مهندس !

إن شكل الميدان ، وتوزيع الحدائق والأرصفة فيه مصمم بحيث يُسَهِّلُ مهمة الكردونات الأمنية في تطويق المتظاهرين .

حَضَرْتُ في هذا الميدان تظاهرتين ما زلت أذكرهما ، التظاهرة **الأولى** : كانت في مارس ٢٠٠٣ ، وكان ذلك فور أن بدأ ضرب أمريكا للعراق ، وقد حَضَرْتُ هذه التظاهرة بالصدفة البحتة ، وجلست في الميدان أقل من ساعة ثم انصرفت ، وكانت هذه أول تظاهرة أشترك فيها في حياتي .

التظاهرة **الثانية** كانت في ٧ سبتمبر ٢٠٠٥ ، فقد كانت قوات الأمن المركزي مشغولة بتزوير الانتخابات ، وتأمين اللجان ، لذلك تجمعنا نحن – ناشطي حركة كفاية – وتظاهرنا في ميدان التحرير لعدة

ساعات ، بدون أن نوقف حركة السير ، وانضم لنا المواطنون حتى بلغنا عدة آلاف .

كل هذا كان في ذاكرتي وأنا أدخل الميدان ، ولكن طعم الميدان هذه المرة كان مختلفاً تمامًا .

بعد أن تجمعنا في الميدان بدأت المشاكل ...

المشكلة الأولى : الاتصالات ، فقد أصبح استخدام التليفون المحمول صعبًا جدًّا ، وذلك بسبب تشويش من عربات مخصصة لذلك يستخدمها جهاز أمن الدولة ، الأمر الذي صعَّب من تواصلنا بعضنا مع بعض كناشطين في مناطق مختلفة ، ولكن الخبر كان قد انتشر ، وأصبح ميدان التحرير قبلة جميع المتظاهرين في ذلك اليوم ، فجاء المتظاهرون من المهندسين ، ومن شبرا ، ومن ناهيا ومناطق الجيزة المختلفة ، وبُعيد العشاء اكتمل العدد ، وقد وصل إلى ما أقدره بحوالي أربعين إلى خمسين ألفًا .

المشكلة الثانية : كانت في كيفية التعامل مع كل هذه الحشود التي لا يربط بينها رابط ، فأغلب الحاضرين كانوا من غير المسيَّسين ، وكان الجميع لا يعرف ما الذي ينبغي عمله بعد ذلك !

* إذاعة التغيير بميدان التحرير

لذلك ، طلبت من الشباب شراء سماعات وميكروفونات فورًا ، وأخرجت من جيبي الخاص مبلغًا من المال ، وبالفعل ذهب « محمود عادل » الناشط المعروف إلى باب اللوق واشترى سماعات ، وميكروفونات ، مع عدة كهرباء .

كان الهدف بالطبع هو عمل إذاعة لنتمكن من توجيه هذا الجمهور ، بدلاً من أن يظل بلا هدف .

وقررنا أن نأخذ كهرباء من عامود النور بجوار إشارة المرور المطلة على الميدان باتجاه مطعم « هارديز » ، حيث وجدنا أنه أفضل مكان في الميدان للإذاعة .

كنا في هذه اللحظة نحتاج إلى كهربائي ، فوقفت وقلت بصوت عال : « يا جماعة ... عايزين كهربائي » .

فوجدت ما يقرب من عشرة أشخاص أمامي ، اثنان منهم مهندسا كهرباء ، والبقية فنيون (صنايعية) .

كنت في قمة السعادة ، فهذا التجمع يضم طبقات متعددة ، طلبة في الجامعة الأمريكية ، وفي الجامعات المصرية ، ومهنيين ، وفلاحين ، فقراء وأغنياء ، بنين وبنات ، وهذه ظاهرة جديدة في الحياة السياسية المصرية ، فالمتظاهرون من طبقات شتى ، ولا يعرف بعضهم بعضًا .

لقد مللنا من التظاهرات التي نلتقي فيها بكل الوجوه التي نعرفها ، تبدأ التظاهرة وعددنا ألف شخص ، وتنتهي دون أن نصبح ألفًا وواحدًا ...!

كان من اللافت للنظر وجود فئات لم يكن يتخيل أحد أن تشترك في تظاهرة سياسية ، فقد كان من الواضح وجود رابطة مشجعي الأهلي والزمالك ، وعرفنا ذلك من خلال طريقتهم في الهتاف ، وطريقتهم في إعداد الألعاب النارية .

المهم ... جاءت المعدات ، وفشلنا في أن نجهزها للعمل !

ولكني صممت على تنفيذ الفكرة ، فقلت لمصطفى النجار المنسق العام للحملة الشعبية لدعم البرادعي ومطالب التغيير ينبغي أن نحضر أجهزة إذاعية أخرى ، ذلك أن ما في جيبي قد نفد ، وقد كان ، فأخرج من جيبه مبلغًا آخر ، وتم شراء عدة أخرى ، ونجح الفنيون في تركيبها .

بين المحاولتين اجتمعنا مع الدكتور عبد الجليل مصطفى لكي نحاول أن نتخذ قرارًا في هذه التظاهرة ، وكان الرأي الغالب أننا ينبغي لنا أن نبدأ اعتصامًا مفتوحًا .

اتفقنا على أن نوزع الشباب على الميدان ، وأن يبدؤوا بسؤال الناس عن مدى تحمسهم للاعتصام والمبيت ، على أن نلتقي في نفس المكان بعد ساعة ، وبعد ساعة تجمعنا وكان من الواضح أن هوى الميدان مع الاعتصام .

بعد ذلك أصبحت الإذاعة جاهزة للعمل ، أمسكت بالميكروفون ، وقلت :

بسم الله الرحمن الرحيم

يا شباب مصر ...

أعلن عن بدء إذاعة التغيير ومقرها ميدان التحرير بالقاهرة ...!

فانفجر جمهور الحاضرين بالتصفيق والهتاف ...!

ثم أكملت كلامي :

يُعِدُّ بَرَامِجَهَا ، ويُحَرِّرُهَا ، ويُقَدِّمُها ، شبابُ مصر الثائر المعتصم بميدان التحرير ...!

بدأت بتحميس الشباب ، وبتوجيههم إلى ضرورة الصمود في أماكنهم مهما كان الثمن ، وبأننا إذا صمدنا حتى صباح الغد واستيقظت القاهرة ووجدتنا في الميدان فمعنى ذلك أننا سنبدأ صفحة جديدة في الحياة السياسية في مصر .

وبالفعل ، امتلأ الجميع حماسة وتصميمًا على البقاء في الميدان حتى الصباح .

أعلنَّا كذلك عن فتح الباب للحديث في الإذاعة لمن يريد أن يلقي قصيدة أو أغنية أو كلمة ، وبدأنا بتلقي الطلبات من الجمهور ، ووعدنا الجميع بأن تكون الإذاعة ملكًا للجميع ، وقد كانت كذلك بالفعل ، لمدة ساعتين ...!

وكان من ضمن ما أشعل الحماس أنني أعلنت أن هذه الثورة قد بدأت بدفع ثمن الحرية وذلك بشهيدين في السويس ...!

هذه اللحظات صوَّرتها قناة الجزيرة ، وأذاعتها في النشرات ، وفي قناة الجزيرة مباشر ، وقد جاءني العديد من المكالمات من الداخل والخارج تستفسر عما حدث في الميدان في هذه الليلة .

في هذه اللحظة كان الميدان قد حدد مطالبه ، فكانت هناك عدة منشورات توزع في وقت واحد ، مطالبها تقريبًا واحدة ، وهي تتحدث عن ضرورة رحيل مبارك ، وحل مجلسي الشعب والشورى ، وإلغاء قانون الطوارئ ، وتغيير بعض مواد الدستور ...

كان الشارع سابقًا للنخبة .

لو أنني سألت رجالات السياسة في تلك اللحظة ماذا تريدون ، وما هي مطالبكم ؟

لقالوا : إقالة وزير الداخلية مثلاً ، أو تنفيذ أحكام القضاء ببطلان الانتخابات في بعض دوائر مجلس الشعب ...!

لذلك ، لم يكن ممكنا تجاهل مطالب الجماهير ، فأخذت ورقة من هذه المنشورات وتلوتُ ما فيها كمطالب للجميع ، وكان ذلك وسط تصفيق حاد جارف ، وكان ذلك دليلاً على أن الإذاعة ملتزمة برأي الميدان لا برؤية من يديرها ، وهذا خطأ وقع فيه الكثير من الإذاعات في

الميدان بعد ذلك ، حيث إنها لم تمثل الجماهير بقدر ما مثلت أصحابها ، ولا يفوتنا هنا أن ننوه إلى أن المطلب الأول في الميدان كان رحيل مبارك فورًا !

إن مطلب رحيل مبارك كان أساسًا لقيام هذه الثورة ، وقبل أن يسقط الشهداء ، لقد استنفد مبارك جميع فرصه ، وكما قال المثل « الخير يخيَّر ، والشر يغيَّر » ، وهو قد قابل هذا الشعب بكل الشرور حتى تغيَّر عليه ، وأصبح لا يريد إلا خلعه .

كنا في الميدان غير مطمئنين ، وكانت التجربة المطبوعة في ذهني مؤلمة جدًّا ...!

وأعني بها التجربة التي حدثت في مارس ٢٠٠٣ ، بعد أن بدأت أمريكا بضرب العراق ، فقد بدأ اعتصام في الميدان بنفس الطريقة ، وعند الفجر ، هجم الأمن المركزي وطرد من طرد ، واعتقل من اعتقل .

كان المنظر مختلفًا ، فالعدد هذه المرة أضعاف العدد الموجود في ٢٠٠٣ ، وأهم من ذلك أن الهمم والمعنويات مختلفة تمامًا .

بدأنا بفعاليات الإذاعة ، وبدأ المتحدثون بالحديث ، أذكر أن أول المتحدثين كان الدكتور علاء الأسواني ، وتحدثت أيضًا السيدة جميلة إسماعيل ، والدكتور عبد الجليل مصطفى ، والنائب الإخواني محمد البلتاجي ، وغيرهم .

وكنت الوحيد الذي لم يتحدث ، فقد شعرت بحرج أن أُلقي أشعاري على الحضور وأنا المسؤول عن الإذاعة ، برغم أن المئات من الحضور أمامي كانوا يطالبونني بذلك ، ولكني تحرجت ، وانتهى اليوم دون أن ألقي قصيدة واحدة ، بل قدمت الآخرين فقط .

*** بداية الهجوم**

قبل انتصاف ليل يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من يناير ، كانت تحركات الشرطة قد أصبحت مريبة ، لذلك طالبت جموع الحاضرين بالتفرق على مداخل الميدان المختلفة لتأمينها جميعًا ، وكان لذلك أثر طيب قلل الخسائر عند اقتحام الشرطة للميدان .

هذه التوجيهات لم تكن اجتهادًا مني بقدر ما كانت استجابة للشباب النابه من حولي .

عند انتصاف الليل كان صوتي قد بلغ به الإرهاق حدًّا رهيبًا ، فلم أتمكن من مواصلة إدارة الإذاعة ، فتركتها للشباب ، وبدأت بالتجول على مداخل الميدان المختلفة لأتأكد من أن جميعها قد تم تأمينه .

وفجأة ، وبدون أي سابق إنذار ، بدأ الهجوم الوحشي القذر من الأمن المركزي ...!

سقطت القنبلة الأولى على الإذاعة مباشرة ...!!!

المدرعات تتقدم ، وأصوات القنابل تدوي ، والقنابل المسيِّلة للدموع تنطلق عاليًا وتسقط في وسط الميدان حيث الحديقة .

كان من الصعب أن نصمد هذا اليوم ، لذلك قرر العقل الجمعي للشعب المصري أن يغادر الميدان .

لذلك عملنا بقول الشاعر :

وعَلِمْتُ أَنِّي إنْ أُقَاتِلْ وَاحِـــدًا

أُقْتَلْ ولا يَضُرُّ عَدُوِّيَ مَشْهَدِي

فَصَدَدْتُ عَنْهُمْ ، والأَحِبَّةُ فيهُمُ

طَمَعًا لَهُمْ بِعِقَـابِ يَوْمٍ مُرْصِدِ

لقد قررنا الانسحاب ، لكي نعود في يوم آخر مرصود لننتصر .

أثناء الانسحاب كان مصطفى النجار أمامي ، وخطر في بالي خاطر ، هل أمشي معه ، أم أنصرف لوحدي ؟

وأخذت القرار ، وانصرفت وحيدًا ، واختفيت بين الجموع ، وكان ذلك قرارًا حكيمًا ، ذلك أنه قد قبض عليه ، ولو كنت قد مشيت معه لقبض علينا معًا !

كنا حذرين جدًّا في تحركاتنا ، ولكن وكما قال الشاعر :

لَوْ كَانَ يُنْجِي مِنَ الرَّدَى حَذَرُ

نَجَّاكَ مِمَّا أَصَابَكَ الحَـــذَرُ !

من ضمن ما حدث أثناء الهروب أن سقطت بجواري قنبلة مسيلة للدموع ، فحاولت التقاطها بشكل شديد السذاجة ، فكدت أختنق بالدخان ، ولولا أن بعض الشباب عرفوني وساعدوني في الهروب لكنت قد سقطت من شدة الإعياء .

كانت خطة الشرطة أن يجبرونا على الخروج من الميدان ، لذلك تركوا لنا بعض الطرق للخروج ، أنا خرجت في جمع غفير من شارع (شامبليون) ، وكان الشباب يهتفون بمنتهى الحماس :

يسقط يسقط حسني مبارك ...

الشعب يريد إسقاط النظام ...

وحين اقترب مني بعض الشباب سائلين : هل خسرنا المعركة بانصرافنا ؟

جاوبتهم بكل ثقة : هذا الجمع ما فرَّ إلا ليكِرَّ ...!

وقلتها بالعامية : إحنا مش هربانين ، إحنا ماشيين علشان نرجع بعدد أكبر ...!

وهو ما حدث بعدها بأيام .

مشيت مع التظاهرة مسافة كبيرة ، فمشينا عبر شارع الجلاء ، ومنه إلى بولاق ، ثم ركبت سيارة أجرة إلى منزلي ، لكي أتابع ما الذي حدث ، لأنني كنت منفصلاً تمامًا عن العالَم بسبب فراغ بطارية هاتفي .

وصلت منزلي في تمام الثالثة والنصف صباحًا ، وبدأت الاتصالات ، وأدركت أننا أمام هجوم وحشي تأذى فيه الكثيرون ، ولا بد أن يعلم الجميع أن هذا اليوم من المرجَّح أنه قد سقط فيه بعض القتلى ، ولكنَّ أحدًا لم يشعر بهم ، وعند الصباح بدأت الأخبار تتوالى عن اعتقال الكثيرين ومنهم مصطفى النجار .

كان من ضمن المعتقلين شباب يخرجون للمرة الأولى في حياتهم للتظاهر ، من ضمنهم شاعر شاب اسمه محمد عبد الناصر ، وكنت قلقًا عليه جدًّا ، لأنه كان في الطريق إليَّ لكي ينضم للتظاهرة أمام نقابة الأطباء ، ثم أمسكت به الشرطة ، وهاتفني ليخبرني أنه اعتقل ، وكنت في غاية الألم لأنني لا أستطيع أن أفعل له شيئًا !

بعد خروج مصطفى من السجن بعد يوم ونصف تبيَّنَ أننا حين كنا نسير معًا في الميدان لحظة الهجوم كنا مراقبين من أشخاص لا نراهم ، وأنهم ساروا خلفه ، واستغلوا أنه تعب من الغازات المسيِّلة للدموع ، وتظاهروا بمساعدته ، ثم قاموا بخطفه في سيارة مجهولة إلى مبنى أمن الدولة في لاظوغلي .

كان القبض عليه لسببين ، **الأول** : أنه المسؤول عن أول دعوة للتظاهرة ، فقد أصدرت الحملة الشعبية لدعم البرادعي بيانًا قالت فيه :

تدعو الحملة الشعبية لدعم البرادعي ومطالب التغيير جموع الشعب المصري إلى الخروج في تظاهرات سلمية يوم كذا بشكل كذا ، وفي أماكن كذا وكذا ... إلخ .

وذلك بعكس الدعوات الأخرى التي كانت تدعو إلى التظاهر بدون أن يوضع على الدعوة اسم الجهة الداعية للتظاهر ، وهو خطأ وقعت فيه الحملة .

والسبب **الثاني** : الإذاعة التي كانت في الميدان ...!

لقد اعتبر جهاز أمن الدولة أنني ومصطفى مسؤولان عما حدث في الميدان ، وكان ذلك قمة السخافة والسذاجة ، ولكنه دأبهم ، يبحثون عن (شماعة) .

لذلك عاملوه بقسوة شديدة في سجنه ، وضُرب ضربًا شديدًا ، ولم يُفرج عنه إلا لأنه كاد يموت في الحجز ، وذلك لأنه مصاب بمرض في رئته يتسبب في حالات ضيق تنفس واختناق ، ونظرًا لأنه كان مكممًا طوال فترة حجزه ، فقد تسبب ذلك في إصابته بنوبة اختناق كادت تودي بحياته .

جاء طبيب السجن ، وكشف عليه ، وقال للضابط : « سيبه قبل ما يموت عندك » ، فرموه في الشارع لكي لا يموت عندهم !

من أهم ما حكاه لنا أيضًا مما جرى في السجن أن جهاز أمن الدولة لم يكن يتخيل أن يتحرك الشعب المصري !

وقد حاولوا إجبار مصطفى على التوقيع على اعترافات معينة بمنطق الشاعر حين قال :

ونُنْكِرُ إِنْ شِئْنَا على النَّاسِ قَوْلَهُمْ

ولا يُنْكِرُونَ القَوْلَ حينَ نَقُـــولُ !

حين أخبرهم أن الحاضرين في الميدان لا انتماء لهم ، ضربوه بعنف ، وحاولوا أن يجبروه على التوقيع على اعترافات ملخصها أن ما حدث كان خطة متفقًا عليها بين د. البرادعي ، وبين الإخوان المسلمين ...!

وكانوا رافضين تمامًا لأي حديث عن حركة عفوية للناس ، وكان من أسباب ضربه في سجنه أنه رفض التوقيع على هذه الاعترافات المفبركة رفضًا تامًّا ، خصوصًا أنها كانت مدعمة بالصور ، وبالصوت والصورة ، إذ تم تصويرنا ونحن نتحدث في الإذاعة التي أقمناها في الميدان .

حين حكى لي ما حدث ، شعرت بأن النهاية اقتربت ، لأن أعراض غرور أمن الدولة أصبحت أكبر من أن يعيش معها هذا الجهاز ، إن غرورهم كان من أهم أسباب القضاء على هذا الجهاز الخسيس .

خرج مصطفى مصابًا ، فهو يعرج بسبب ضرب مبرح في ركبته ، وكذلك كان مصابًا بشرخ في أحد أضلاع صدره ، بالإضافة للإرهاق الذي تسبب فيه تكميمه طوال فترة اعتقاله ، وذلك أدى إلى نوبة ضيق التنفس التي أصابته .

الفصل الثاني

جُمعَةُ غَضَبٍ لكُلِّ الشَّعْب...

يَا مَنْ لعِرْضِي هَتَكْ   فَقَدْتَ شَرْعِيَّتَكْ
مِنْ رُبْعِ قَرْنٍ كَئِيبٍ   لَعَنْتُهَا طَلْعَتَكْ
أموَالُنَا لَكَ حِلٌّ   فَامْلأ بِهَا جَعْبَتَكْ
خَلْفَ الحِرَاسَةِ دَوْمًا   مُسْتَعْرِضًا قُوَّتَكْ
تُبْدِي مَظَاهِرَ عِزٍّ   تُخْفِي بِهَا ذِلَّتَكْ
سِلاحُ جَيْشِكَ دِرْعٌ   تَحْمِي بِهِ عُصْبَتَكْ
مَعَ العَدُوِّ كَلِيلٌ   لَكِنْ بِشَعْبِي فَتَكْ
سَوَادُ قَلبِكَ بَادٍ   فَاصْبُغ بِهِ شَيْبَتَكْ !

(من قصيدة « **الهاتك بأمر الله** » للشاعر ، كُتبت في ٢٠٠٥/٢/١١)

*** التظاهرات مستمرة ، والبرادعي في القاهرة**

استمرت التظاهرات حتى يوم الجمعة ٢٨ يناير ، وهو يوم جمعة الغضب الذي دعونا إليه أول ما دعونا من خلال الإذاعة التي كانت في ميدان التحرير !

بعد أن تم فض الاعتصام هاتفني أصدقاء لم أسمع أصواتهم منذ سنوات وسنوات ليعرفوا كيفية الانضمام لهذه الحركة .

كان الشعور الغالب عند مَن يتصل بي ، أنه قد فاته شرف الاشتراك في التظاهرة الكبرى في ميدان التحرير ، وأنه يريد أن يعوِّضَ ما فاته .

وخلال اليومين التاليين (الأربعاء ، والخميس) استمرت التظاهرات في عشرات الأماكن في القاهرة الكبرى ، وفي الإسكندرية ، وفي السويس ، وفي العديد من المحافظات .

كانت تظاهرات صغيرة ، أو متوسطة ، ولكنها استدعت حشد قوات الأمن المركزي ، مما تسبب في إرهاق شديد لهذه القوات ، وبالتالي كانت المهمة سهلة يوم الجمعة ، فقد كنا نحارب جيشًا منهكًا تمام الإنهاك .

ليلة الجمعة وصل الدكتور محمد البرادعي إلى القاهرة ، بعد أن قطع سفره خصوصًا لينضم إلى التظاهرات .

كان آخر لقاء لي بالدكتور محمد البرادعي في الأيام الأولى من يناير ٢٠١١ ، فقد التقيته في جلسة ودية في منزله بمناسبة انتهاء عملي كمنسق للحملة الشعبية لدعم البرادعي ومطالب التغيير ، واتفقنا على عدة أشياء ، من أهمها أن يسجل الدكتور البرادعي فيديو يحث الشباب فيه على النزول إلى الشارع يوم ٢٥ يناير ، وكان ذلك قبل أن تتطور الأمور في تونس ، وقبل أن يتخيل أحد أن هذا اليوم سيكون بداية ثورة عارمة .

وكنت قد طلبت منه أن يكون موجودًا في القاهرة يوم ٢٥ يناير ، ولكن جدوله لم يسمح ، وأنا - كعادتي - لم ألح عليه !

كان من أسوأ الأمور التي حدثت في تلك الفترة أن كثيرًا من الناس استقبلوا عودة البرادعي للقاهرة وكأنها محاولة للقفز على ثورة على وشك أن تبدأ أو بدأت بالفعل في مصر !

حين وصل الدكتور البرادعي يوم الخميس ليلاً ، عقدنا اجتماعًا معه في منزله فور وصوله ، وكان من ضمن الحاضرين الدكتور عبد الجليل مصطفى ، والدكتور محمد أبو الغار ، الدكتور عصام العريان ، والدكتور الكتاتني ، والدكتور مصطفى النجار ، والناشط عبد المنعم إمام .

من أهم ما دار في الاجتماع أن الإخوان المسلمين قد اتخذوا الموقف الصحيح ، وكان كلام الدكتور العريان والدكتور الكتاتني يدل على

أن الجماعة قد قررت النزول للشارع وأن تلتحم مع الشعب المصري في ثورته .

وحين سألني الدكتور البرادعي عن رأيي فيما يحدث ، قلت إننا لا بد أن نفهم أننا لا نتعامل مع وزارة الداخلية ، وأن هذا الوضع الذي نحن فيه يعتبر أكبر تهديد للنظام الجمهوري منذ قيامه عام ١٩٥٢ ، وبالتالي هذا الأمر أكبر بكثير من أن يديره وزير داخلية أيًّا كان ، وأننا نتعامل حاليًّا مع النواة الصلبة للنظام ، وأن هناك غرفة عمليات في مكان ما تدير المسألة ، وتعطي أوامرها لوزارة الداخلية لكي تنفذ .

ودللت على ذلك بأن النظام فعل ذلك عند أزمة القضاة في ٢٠٠٥ ، وشكَّل غرفة عمليات تدير الأزمة ، وتعطي الأوامر لوزارة الداخلية لتنفذها فقط ، ولا دور لوزارة الداخلية سوى التنفيذ .

كنت مخطئًا في كل ما قلته ، فقد أصبح النظام أغبى مما يتصوَّرُ الجميع ، وتركوا الأمر كله لوزير الداخلية حبيب العادلي ، محدود الكفاءة والذكاء ...!

وكان من ضمن ما قلته إن أكبر خطر يهددنا هو أن يطول أمد المعركة ، وأننا لا بد أن نكون حذرين جدًّا في إدارة عمر المعركة ، لأننا لا نضمن إلى أي حد سيطول نفَس الجموع معنا ، ولا ينبغي أن نرهق الجموع في معركة طويلة الأمد دون أن نتأكد من قدرة الناس على

الاستمرار ، وقد قدرت الزمن الذي ينبغي أن نحسم فيه المعركة بحوالي أسبوعين .

وقد تبين بعد ذلك أن الشعب المصري أعظم وأقوى مما نظن ، فقد طالت المعركة أكثر من ذلك ، ولم يقل الزخم ، ولم تفتر عزيمة المعتصمين .

كنا نتوقع أن يكون عدد المتظاهرين من مليون إلى مليوني متظاهر في مصر كلها ، وكان تخوفنا أن يكون العدد أقل من مليون متظاهر ، وكنا نعتبر أن نزول مليوني متظاهر كفيل بأن يهز النظام هزة قد تنهيه تمامًا .

كانت الخطة أن نصلي الجمعة مع الدكتور محمد البرادعي في مسجد الاستقامة الواقع في ميدان الجيزة ، تم إعلان ذلك على الفيس بوك ، واتصل بي عشرات المواطنين والناشطين يتساءلون عن مكان صلاة الدكتور ، وأخبرتهم .

كانت الأخبار تتواتر لدينا بنية الحكومة في قطع جميع أشكال الاتصال ، من محمول ، وإنترنت ، لذلك اتفق جميع الناشطين على أماكن لقائهم بدقة ؛ لأنهم يعلمون أن التواصل غدًا قد يكون مستحيلاً .

* ليلة جمعة الغضب

في هذه الليلة كانت لي مداخلة تليفونية على قناة الجزيرة مباشر وقلتُ فيها إننا سنرى الحكام العرب يظهرون على التلفاز واحدًا بعد آخر ليقول كل منهم « أنا فهمتكم أنا فهمتكم » ، تمامًا كما حدث مع الرئيس التونسي المخلوع زين العابدين بن علي !

قلت ذلك بصوت مبحوح بسبب آثار تظاهرة يوم ٢٥ يناير ، وظل صوتي مبحوحًا إلى منتصف فبراير تقريبًا ، ولكني كلما سمعت هذه المداخلة أتأثر بها جدًّا ، فقد كان الحماس في صوت المتحدث مؤثرًا بالفعل ...!

حين ذهبت للمنزل في نفس اليوم ، في ٢٧ يناير ، ليلة جمعة الغضب ، وجدت شاعرًا شابًّا اسمه « هشام الجخ » ضيفًا على قناة المحور ، مع المذيع المكروه « سيد علي » ، لهذا الشاعر جمهور ، وكنت أحسن فيه الظن ، وذهلت حين وجدته يذم شباب الثورة ، ويتهمهم بإحراق السيارات ، وإثارة الشغب ، وأنه لا بد من الالتزام بتعليمات الأمن ، في نفس الوقت الذي يظهر فيه على الشاشة بعض المشاهد لسيارات تحترق ، وأعمال شغب .

كان يحاول أن يُغَلِّفَ تحريضه على شباب الثورة وتثبيطه لهم ببعض المحسنات البلاغية ، مثل إن من كانوا في الميدان (شباب زي الورد) ...!

نظرت لكليهما – المذيع والشاعر – وتذكرت قول المثل : (أرقص للقرد في دولته) ...!

كان الشاعر يكذب قائلاً : لقد انصرفت من الميدان يوم ٢٥ يناير بعد أول (كاوتش) أحرقه المتظاهرون ...!

وهو كذب مزدوج ، فلا هو كان في الميدان ، ولا المتظاهرون أحرقوا أي شيء كان في الميدان ، والشيء الوحيد الذي صدر منه دخان هذا اليوم ، هو القنابل المسيِّلة للدموع التي ألقتها شرطة مكافحة الشغب ...!

كان يسخر من الإعداد للتظاهرات ، ويستغرب من التعليمات المتعلقة ببعض الوسائل التي يتم بها مقاومة القنابل المسيِّلة للدموع ، وأخذ يسخر ويتساءل : هل نحن مقبلون على حرب ؟ ، والمذيع يتعاون معه في إظهار مدى رقة الشرطة ، واحترامها ، وعظمة تعاملها مع المتظاهرين ...!

عرفت حينها أن هناك كثيرًا من الشخصيات ستظهر على حقيقتها ، وأن لحظة الحقيقة قد اقتربت !

ولكن ذلك لم يمنع غصة في حلقي شعرت بها ، لأن ظهور الشعراء بهذا الشكل المخزي يعزز صورة الشاعر الأجير ، والأديب المنافق ، والكاتب المأجور ، عند جمهور الناس ، وهذا أمر طالما آلمني .

* جمعة الغضب ، تاريخ جديد لمصر

في صباح يوم الجمعة حدث أمر غريب ، وخلاصته أن الدكتور مصطفى النجار اضطر أن يتحرك من مسكنه في مدينة السادس من أكتوبر إلى ميدان التحرير لكي يوصل غرضًا معينًا ، وكان تحركه

في حدود التاسعة صباحًا ، وقد اتصل بي وهو فزع ، وقال لي : « الجيش شكله حينزل » ...!

فاستغربت ، وسألته عن السبب ، فأجاب بأنه لا يرى شرطيًّا واحدًا في أي شارع من شوارع القاهرة منذ انطلق من مدينة السادس من أكتوبر وحتى وصوله إلى وسط المدينة !

أعدت عليه السؤال ، فكرر الإجابة مؤكدًا ، وأخبرني أنه في ميدان التحرير ، ولا يوجد أي شرطة لمكافحة الشغب ، بل إن شرطة المرور اختفت من الشوارع ...!

اتصلت ببعض الأصدقاء أسألهم عن دلالة ذلك ، وكان من ضمنهم الصديق العزيز الأستاذ حسين عبد الغني الإعلامي الشهير ، وأذكر أنه قال لي : « دي مش موجودة في الكتاب يا عبد الرحمن ! » ، ويقصد أنه أمر غريب مريب لا تفسير له .

تبيَّن بعد ذلك أن ما حدث أمر من اثنين ، إما أن الشرطة كانت مختبئة في الشوارع الجانبية وظهرت في وقت الصلاة ، وهو احتمال أستبعده .

وإما أن شرطة مكافحة الشغب قد تعبت بعد ثلاثة أيام من العمل المتواصل ، فعادت إلى معسكراتها ليلة الجمعة وذلك في محاولة لمنح هذه القوات قسطًا من الراحة ، ثم جلبت إلى مواقعها مع صلاة الجمعة ، وهذا ما أرجحه .

وصلتنا أخبار صباح الجمعة أن الأمن سيمنع الصلاة في مسجد الاستقامة ، وبالتالي قلنا للجميع أحضروا معكم سجاجيدكم لكي نصلي في الشارع إذا اضطررنا .

قبل العاشرة والنصف بدأت شبكات المحمول بالتأثر ، وخلال عدة دقائق تعطلت الشبكات الثلاث ، وانقطع الناس بعضهم عن بعض تمامًا ، وانقطع كذلك الاتصال بالشبكة العنكبوتية ، مما جعل مصر جزيرة منعزلة عن العالم ، وأصبح شكل الاتصال الوحيد المتاح هو الاتصال عن طريق الهاتف الأرضي .

كان الاتفاق أن نلتقي أمام منزل الدكتور أحمد شكري ، وهو ابن أخت الدكتور البرادعي ، ويسكن أمام حديقة الحيوان بالقرب من ميدان الجيزة ، وتقابلنا هناك في حدود الحادية عشرة صباحًا ، وكان هناك جمع من الرموز على رأسهم الدكتور عبد الجليل مصطفى ، والدكتور أبو الغار ، التقيت يومها السيدة هبة صالح مراسلة الفاينانشال تايمز للمرة الأولى ، وذلك بعد علاقة (لاسلكية) استمرت عدة شهور ، وكان من الحاضرين كذلك د. أسامة الغزالي حرب ، والصحفي الأستاذ إبراهيم عيسى .

وصل الدكتور البرادعي متأخرًا قليلاً ، وبعد أن كنا بدأنا بالقلق عليه ، وتحركنا فور وصوله إلى مسجد الاستقامة في مسيرة بالسيارات ، ووقفنا قبل الوصول للمسجد في مكان متفق عليه ، حيث كان ينتظرنا

عشرات الشباب لكي يقوموا بالتحلُّق حول الدكتور لحمايته من أي أذى .

تحلَّق الشباب حول الدكتور ، وبدأت المسيرة التي لم تستغرق سوى دقائق ونحن نهتف تحيا مصر ، حتى وصلنا إلى المسجد ، وكانت الخطبة قد بدأت ، وكان المسجد غاصًّا بالمصلين .

حاولت الدخول إلى المسجد فلم أتمكن ، فصليت أمام باب المسجد مباشرة .

أما الدكتور البرادعي بسبب كثرة المحيطين به فلم يتمكن من الوصول إلى باب المسجد من الأساس ، لذلك صلى هو ومن معه في الشارع ، وقد جاء مدير أمن الجيزة في هذه اللحظة ، ودعا البرادعي ومَن معه لدخول المسجد ، ولكن الناشطين الذين في صحبة الدكتور رأَوا أنه من الممكن أن يتم حصار الجميع داخل المسجد ، لذلك قرروا الصلاة في الشارع ، فما كان من السيد مدير الأمن إلا أن سبهم سبًّا مقذعًا ...!

المكان محاصر بآلاف الجنود من الأمن المركزي ، والجو فيه قلق وتوتر يكاد يشمه المرء في الهواء .

حاولت التركيز في خطبة الجمعة لأعرف رأي المؤسسة الدينية فيما يحدث ، فوجدت الخطبة متوازنة ، وسبب ذلك أن الخطيب ليس تابعًا للأوقاف ، فالمسجد الذي اخترناه تابع للجمعية الشرعية ، وقد قال الخطيب في خطبته أن الجمعية الشرعية أصدرت بيانًا من ثلاث نقاط ، النقطة الأولى تدعو الحكومة إلى رد المظالم ، والنقطة الثانية تؤكد فيه

على حق الناس في التعبير عن رأيهم ، والنقطة الثالثة تدعو المتظاهرين إلى عدم الاعتداء على أي ممتلكات عامة أو خاصة .

*** معركة ميدان الجيزة**

بعد أن سلَّم الإمام تسليمته الثانية انطلقت الهتافات من المصلين بشكل عفوي : « تحيا مصر » ، ومن جهة أخرى هتافات تقول : « التغيير التغيير » ، ولكن حين هتف شخص قائلاً : يسقط يسقط حسني مبارك ، توحدت كل الحناجر كأنها سيل جارف ، أو كأنها رعد من السماء ، وظل المصلون يرددون هذا الهتاف ضد مبارك ويكررونه دون أي كلل أو ملل .

في هذه الأثناء غيَّرتُ موقعي لكي أحاول الوصول للدكتور البرادعي ، فرأيت مشهدًا لن أنساه ، لقد بدأت المدرعات برش المياه على المصلين برغم أنهم لم يتحركوا بعدُ من أماكنهم ، ونظرًا لأن الدكتور البرادعي لم يتمكن من دخول الجامع ، فقد كان خرطوم المياه موجهًا نحوه مباشرة !

حاول الشباب أن يحموه ، ولكني شاهدت الماء يخبطه هو شخصيًّا في رأسه وجسده ، وهو مستكين صابر كعادته ، كل ما فعله أن حمى نظارته من السقوط بيديه ، ثم أخذه الشباب إلى داخل المسجد لكي يتمكنوا من حمايته ، وانضم له في المسجد كل الكبار الذين كانوا معه .

كان أمامي ثلاثة خيارات ، الخيار الأول : التوجه مع مجموعة من المصلين إلى جامعة القاهرة كانوا قد بدؤوا بالتحرك إلى هناك فعلاً .

والخيار الثاني : أن أحتمي بالمسجد مع الدكتور البرادعي والناشطين الذين معه .

والخيار الثالث : أن أخوض المعركة مع المتظاهرين المتجمهرين هنا في ميدان الجيزة .

وقد اخترت الخيار الثالث ، لكي لا يفوتني شرف المشاركة في هذه المعركة العظيمة ، ولكي أكون بين الناس ، فهذا هو الموقع الذي يجب عليَّ أن أكون فيه .

كان واضحًا أن الشرطة تخوض معركتها الأخيرة ، وقد كان الشعب المصري يقول بلسان حاله لقوات الشرطة ، ما قاله الشاعر العربي القديم لأبناء عمه الذين يبغضهم :

مَهْـلاً بَني عَمِّنَا ، مَهْـلاً مَوَالينَا

لا تَنْبِشُـوا بَيْنَنَا مَا كَانَ مَدْفُونا

لا تَطْمَعُوا أَنْ تُهينُونَا ، ونُكْرِمَكُمْ

وأَنْ نَكُفَّ الأَذى عَنْـكُمْ وتُؤْذُونَـا

اللهُ يَعْـــلَمُ أَنَّا لا نُحِبُّـــكُمُ

ولا نَلومُـكُمُ أَنْ لا تُحِبُّـونَـــا

كُلٌّ لَهُ نِيَّـــةٌ في بُغْضِ صَاحِبِـــهِ

بِنِعْمَةِ اللهِ نَقْلِيكُمْ وتَقْـــلُونَـــا !

وكانت الشرطة تنظر للشعب بلسان حال الشاعر :

وإنِّي لا أَزَالُ أَخَـــــــــا حُـــرُوبٍ

إذا لَمْ أَجْنِ كُنْتُ مِجَنَّ جَانِ...!!!

وقد كانت الشرطة جانيًا في اعتدائها على المتظاهرين ، وكانت مجن الجاني في الانفلات الأمني ...!

بدأت المعركة برش المياه على المتظاهرين ، وقد كنت من ضمن مجموعة حاولت أن تحمِّسَ الناس لكي يتشجعوا ويدخلوا باتجاه الجنود ، وقد قمت بالاشتباك مع بعض الجنود ، وخطفت عصا من يد واحد منهم ، وكنت سعيدًا بها جدًّا ، ولكنها ضاعت مني في أحداث المعركة بعد ذلك !

حين اشتبكت مع الجنود أصابني خرطوم المياه الخارج من المدرعة إصابة مباشرة من قمة رأسي إلى أخمص قدمي ، فصار منظري كأني خرجت من البحر لتوِّي !

كنت ألبس بنطلون (جينز) ، وكنزتين من الصوف ، وذلك لحماية جسمي من الهراوات التي قد تسقط عليه ، وصار كل ذلك مبتلاً تمامًا ، كل ما ألبسه من ملابس ، حتى الداخلية صارت مبتلة تمامًا ، وظلت

مبتلة لساعات ، حتى إنني بعد أن صليت العصر كنت ما زلت أعصر ملابسي فتتز الماء نزًّا !

بدأت المعركة بالماء ، ثم بعد أن ابتعد المتظاهرون - بسبب الماء - مسافة معقولة بدأت القنابل المسيِّلة للدموع بالانطلاق .

لقد أُلقي علينا مئات القنابل !

كان عدد المتظاهرين يزداد كل دقيقة ، وكان المتظاهرون يأتون من مناطق الجيزة المختلفة حتى يصلوا إلى ميدان الجيزة ، فينضموا إلينا .

كان المتظاهرون قد فهموا اللعبة ، وعرفوا كيفية التعامل مع القنابل المسيِّلة للدموع ، فالعلاج هو الخل ، مناديل أو كوفيات مبتلة بالخل ، وكذلك أن يشم المصاب بصلاً ، أو أن يغسل وجهه بالبيبسي أو ما شابه ذلك من المشروبات ، بالإضافة إلى حماية الوجه بقناع طبي ، وحماية العيون بنظارة مائية أو ما شابه ذلك ، وقد تعلمنا ذلك من خلال التواصل مع الشباب التونسي على الفيس بوك .

كنت قد حصنت نفسي ببعض هذه الأشياء ، وخضت المعركة مع شباب الجيزة الذين أظهروا شجاعة مذهلة !

كانوا يقفزون إلى القنابل المسيِّلة قفزًا ، ثم يمسكونها بيديهم ، ويركضون بسرعة إلى رجال الشرطة ، ثم يلقونها ناحيتهم ، وقد ساعدهم في ذلك أن الله شاء أن يتغير اتجاه الريح فيصبح باتجاه الشرطة

لا باتجاهنا ، فانطبق على حالنا المثل القائل (الأرض تضرب مع أصحابها) !

في هذه المعركة ... عرفت أن التغيير أصبح واقعًا ...!

لقد انتصر المصريون على خوفهم ، وكأنهم قد عملوا بقول المثل (اللي تخاف منه ، ما يجيش أحسن منه) !

لم أرَ في حياتي كلها المصريين يحب بعضهم بعضًا بهذا الشكل !

البصل والخل يتساقط علينا من الشرفات ، كلما تعب شخص وجد عشرة يحملونه ويساعدونه ، وجدت من المتظاهرين مَن اشترى قطرات العيون وظل يعالج بها عيون المصابين بالقنابل ، ووجدت مَن يشتري البيبسي لكي يساعد المصابين ، بعض أصحاب المحال ، وبعض الأكشاك توزِّع صناديق البيبسي مجانًا ...!

كان حواري الداخلي يقول : « هؤلاء هم المصريون ، المصريون الذين يقتلون بعضهم بعضًا من أجل عشرة جنيهات ، هؤلاء هم المصريون الذين يقترفون كافة الموبقات ، هؤلاء هم الذين يدفعون الرشا والإكراميات ، ولا يتقنون أعمالهم ، ويعيشون عالة على الأمم وعلى أنفسهم ... هاهم يستخرجون أفضل ما في أنفسهم بعد أن قرروا أن يكونوا قادة أنفسهم » !

وكان من المشاهد المؤثرة التي شاهدتها رجل مع امرأته الحامل يخوضون المعركة مع المتظاهرين !

شاهدت أطفالاً صغارًا لا تتجاوز أعمارهم العاشرة يشاركون في المعركة ، وشاهدت سيدات كبيرات ، وفتيات صغيرات .

شاهدت مسلمين ومسيحيين .

وقد كانت الغالبية العظمى من الشباب الذين لم يتموا الثلاثين .

كنت أشعر أن البلد يولد من جديد ، كنت أشعر بطاقة حب غريبة !

بالرغم من اشتعال المعركة كان الجميع يواصلون الهتاف ، يسقط يسقط حسني مبارك ، وكلما شاهدوا شابًّا أو رجلاً في شرفة من الشرفات يتفرج على التظاهرة يهتفون له وهم يؤشرون له بالنزول : « انزل انزل خليك راجل ، حسني مبارك راحل راحل ! » .

في هذه الأثناء أذَّنَ العصر ، وبدأ الناس بأداء الصلاة جماعات جماعات تحت الجسر ، وبرغم مرور كل هذا الوقت إلا أن ملابسي ما زالت تقطر ماء بسبب المدرعة اللعينة التي أغرقتني بمائها ، وبدأت أشعر بإجهاد شديد بسبب البرودة النسبية لذلك اليوم ، بالإضافة إلى الغازات والمجهود الذي يبذله المرء في الكرِّ والفرِّ .

انضممت إلى جماعة وصليت العصر ، ثم أكملت الجموع معركتها مع الشرطة .

لقد كان الوعي الذي يحرك المتظاهرين في غاية الروعة ، لدرجة أنني كنت أحمل في يدي حجرًا على سبيل الاحتياط ، فوجدت من ينبهني إلى ضرورة التزام الشكل السلمي للتظاهرة .

لقد كان وعي الجماهير سابقًا وعي النُّخب بكثير ، ولكن – للأسف الشديد – ما زالت بعض النُّخب تتكبر على هذا الشعب ، حتى بعد أن قام بهذه الثورة العظيمة !

وبقدر الوعي الذي كان في المتظاهرين ، بقدر ما كانت خسَّةُ رجال الشرطة ، فقد أحرقوا سيارة مدنية خاصة واقفة في الشارع عمدًا أمام أعيننا ، وحين حاول البعض إطفاء الحريق أطلقوا نحوهم القنابل ، ثم أطلقوا عليهم الرصاص المطاطي .

كان صاحب السيارة يقف في شرفة أمام سيارته متحسرًا ، وهو يصرخ في الشرطة ، ولكن هيهات أن يستجيب أحد ...!

وفي منتصف المعركة توقفت الشرطة عن إطلاق القنابل حتى أُوحي إلينا أن المعركة انتهت ، ولهذا بدأ المتجمهرون بالاقتراب من الشرطة ، وبعد أن أصبحنا في مواجهتهم انهالت علينا القنابل من المدرعات ، ومن فوق الجسر ، وتسبب ذلك في إصابات كثيرة ، وأُصبت حينها باختناق شديد ، وفقدت العصا التي غنمتها من الجندي ، ولولا مساعدة أحد الناشطين الذين يعرفونني (اسمه كريم الجهيني) لكنت قد فقدت وعيي .

بعدها بدا واضحًا أن التشكيلات التي أمامنا من مكافحة الشغب قد باتت في وضع محرج ، فهي تتراجع ، وتقلل مما تقذفه علينا .

أنا شخصيًّا كان رأيي أن هناك أمرًا ما قد جاء لهذه التشكيلات ،

إما بالكف عن الضرب ، أو بالانسحاب ، والبعض رأى أن ذخيرتهم من القنابل قد فرغت !

وأنا الآن أظن أن الأمر مزيج من الاثنين .

*** انتهاء المعركة ، وبوادر أخلاق الميدان**

بعد أن أفسح لنا الأمن المركزي طريقنا رأيت مشهدًا في منتهى الروعة !

لقد بدأ المتظاهرون بالسلام على عساكر وضباط الشرطة ، بل إن البعض بدأ بتقبيلهم والحديث معهم بما يرفع معنوياتهم ، وبما يرفع الحرج عنهم ، كلام من نوعية : والله العظيم عاذرينكم ، عارفين إنه مالكوش ذنب ، منه لله اللي بيخليكوا تعملوا فينا كده !

لقد ارتقى الناس لمستوى اللحظة الحضاري ، ولم يشمتوا في هذه القوات ، وكانوا يدركون أن جهاز الشرطة أصلاً من أجلهم ، ولكنه انحرف ، وكانوا يدركون أنهم حين يضربون الشرطة إنما يضربون أنفسهم ، ولكنهم مضطرون ، في هذه اللحظة تذكرت قول الشاعر :

فَإِنْ أَكُ قَدْ شَفَيْتُ بِهِمْ غَلِيلي

فَلَمْ أَقْطَعْ بِهِمْ إلا بَنَانِي !

وفي هذه اللحظة صعد بعض المتظاهرين أعلى الكوبري وبدؤوا برشق الشرطة بالحجارة ، فما كان من جموع المتظاهرين إلا أن تكتَّلت

أمام تشكيلات الأمن المركزي كدرع بشري ، مع هتاف موحد يدوي في السماء : « سلمية ، سلمية » !

كان هناك بائع (سميط) في التظاهرة ، يبيع وهو يصرخ : (بنص جنيه) ، وحين انتصرت الجموع على الأمن بدأ هذا البائع يصرخ فرحًا : « ببلاش ببلاش ببلاش » !

وبدأ الناس يأخذون بضاعته مجانًا ، ويقبلون عليها من شدة التعب وهو راضٍ بذلك ، فجاء شاب ثلاثيني سمح الوجه ، وقال للبائع : « بتتكلم جد ؟ » .

فأجاب البائع بثقة : « أيوه ... اتفضل » ، فما كان من الشاب إلا أن أخرج من جيبه ورقة نقدية بمئتي جنيه ، وأعطاها للبائع في يده ، قائلاً له : « برافو عليك » ...!

كان هذا الموقف وما شابهه إرهاصة لما سوف يحدث في الميدان ، أعني بذلك ظهور أخلاق جديدة ، وسلوك مختلف من المصريين ، بسبب اللحظة التاريخية التي يعيشونها .

وبهذا المشهد الرائع انتهت معركة ميدان الجيزة ، وتحركت الجموع إلى ميدان التحرير .

*** مشاهد عامة من القاهرة**

كنت في غاية الإجهاد ، لذلك مشيت مع الماشين حتى وصلت لسيارتي عند حديقة الحيوان ، وقررت أن أذهب إلى منزلي في الجيزة لتبديل ملابسي .

استغرقت رحلتي إلى المنزل ما يزيد على ساعتين ، ذلك أن انسحاب الشرطة من الشوارع قد بدا واضحًا ، لذلك كلما سلكت طريقًا وجدته مغلقًا إما بالتظاهرات وإما بالبلطجية !

كان الطريق الدائري (من جهة المنيب) مغلقًا بالبلطجية ، وكانوا يمنعون السيارات من المرور مع التلويح بالعصي والسكاكين ، وكذلك كل الطرق التي تمر بمنطقة وسط البلد ، لذلك اضطررت للعودة والدخول من حي المنيل إلى منطقة سور مجرى العيون ثم عبر القلعة إلى أن ارتقيت كوبري ٦ أكتوبر من طريق صلاح سالم ، ثم مشيت إلى أن وصلت إلى كوبري ١٥ مايو ، وعندها وجدت قوات مكافحة الشغب تتصدى لجموع قادمة من جهة شبرا ، وجموع أخرى قادمة من بولاق ، وجموع قادمة من الزمالك ، وكلها تريد الوصول إلى ميدان التحرير .

في هذه المنطقة وقفت ما يقرب من ربع ساعة ، ثم تجمعت بعض السيارات ففتح الأمن المركزي لنا الطريق وعبرنا بسرعة من خلال كوبري ١٥ مايو من فوق الزمالك حتى وصلت إلى المهندسين ، وفي ميدان سفنكس كانت هناك اشتباكات عنيفة جدًّا بين المتظاهرين والشرطة ،

وكادت سيارتي تُدمَّر بسبب القنابل والحجارة التي يلقيها الطرفان .

من أهم مميزات رحلتي الطويلة إلى المنزل أنني رأيت التظاهرات في أجزاء كثيرة من القاهرة ، خصوصًا حين قطعت المسافة من شرق القاهرة عبر كوبري ٦ أكتوبر إلى المهندسين ، ثم إلى السادس من أكتوبر .

رأيت مناطق مثل العباسية ، وغمرة ، ورمسيس ، وشارع الجلاء ، وبولاق ، وكورنيش شبرا ، والزمالك ... كل هذه المناطق كانت غاصة بالبشر .

ما رأيته بنفسي في هذا اليوم لا يقل عن نصف مليون متظاهر بأي حال من الأحوال .

طوال الطريق كنت أستمع إلى إحدى محطات الإذاعة الرسمية ، وعلى مدار ساعة ونصف كانت الإذاعة تحاول أن توضح أن الأمور مستقرة ، وأن الاحتجاجات محدودة جدًّا ، وأنها محصورة في محافظات قليلة .

هذه الرسالة الإعلامية المزورة جاءت على لسان محافظي الفيوم والغربية والسويس وقنا وأسيوط وغيرهم ، وبعض هؤلاء المحافظين بالغ في صفاقته حتى زعم أن الشرطة تحمي المتظاهرين ، وتؤمن مسيرتهم لا أكثر !

وعند الخامسة والنصف ، كانت نشرة الأخبار تعلن نزول القوات المسلحة بأمر من مبارك بصفته الحاكم العسكري ، وتفرض حظر

التجول ، وغير ذلك من الإجراءات ، وذلك من أجل حماية ممتلكات الدولة والمواطنين من اعتداءات الغوغاء على الفنادق والبنوك وغيرها .

حينها قلت في نفسي : يا لغبائهم !

نفس الراديو كان يعلن منذ دقائق أن الأمور مستقرة ، وفجأة اتخذت كل هذه الإجراءات من أجل حماية البلد من الغوغاء ...!

كانت رائحة القنابل في كل مكان ، كلما فتحت شباك السيارة في أي مكان في القاهرة تقريبًا تدخل هذه الرائحة الخانقة .

واصلت طريقي إلى منزلي ، ووصلت بعد المغرب ، فخلعت ملابسي وأنا منهك تمامًا ، وجلست أمام محطات التلفزيون ، وأعلن التلفزيون المصري عن كلمة سيلقيها مبارك بعد قليل .

جميع الكاميرات في العالم تتجه صوب الميدان ، وكانت أفضل التغطيات هي التي قامت بها قناة الجزيرة ، وقد عرفت فيما بعد أنها قد تمكنت من تسليط عشرات الكاميرات على الميدان وما ومن فيه ، ليتم نقل الحدث بالصورة المطلوبة .

بعدها أُعلن أن السيد فتحي سرور قد صرح بأن هناك قرارات مهمة سيتم الإعلان عنها !

كان انطباعي أن هناك صراعًا في غرفة القيادة على كيفية إعلان خروج مبارك من الحكم !

لقد وصل المتظاهرون إلى مبنى التلفزيون !

والحرائق ممتدة بدءًا من أقسام الشرطة ، وصولاً إلى المتحف المصري ، مرورًا بمقر الحزب الوطني الحاكم !

لقد سقط مبارك ، ونحن في انتظار خطاب التنحي !

* الخطاب الأول لمبارك ، ونتائجه

ما عرفناه بعد ذلك أن الوحدات التي جاءت إلى منطقة وسط البلد كانت من الحرس الجمهوري ، وكان الهدف منها أن تؤمن مبنى ماسبيرو ، وهذا ما حدث ، وتم إقناع المتظاهرين (وهم بالمئات) بالخروج من المبنى ، ولم يلتفت أحد من هؤلاء القادة إلى ما يحدث في المتحف المصري ، فأمَّنوا التلفزيون والإذاعة ، وتركوا المتحف يُنهب ، وتركوه أيضًا معرضًا للاحتراق بسبب الحريق الذي شب في مبنى الحزب الوطني المجاور له !

جلستُ أتابع القنوات الفضائية وأنا في انتظار خطاب التنحي (حسبما كنت أظن) ، وبعد منتصف الليل ، خرج علينا بوجهه العكر ، ليعلن بقاءه ، ويعلن تعيين نائب ، وإقالة الحكومة !

لقد كان خطابًا ينطبق عليه قول المثل المصري : « أبرد من مَيِّة طوبة » !

لم يشر إلى جرحى ، لم يترحَّم على شهداء ، لم يتحدث عن أي

مظالم حدثت خلال ثلاثين عامًا من الدعارة السياسية المعلنة ...!

شعرت بصفعة على وجهي !

يا له من عُتُلٍّ غبي !

تذكرت ما قلته في قصيدة الطريدة :

مَـاذَا أَشَـارَ عَلَيْـكَ قَـوَّادٌ وحَاشِـيَةٌ تُصَـعِّرُ خَـدَّهَا للنَّـاسِ ؟
أَنْ تُلْقِي خِطَابًا آخَرًا ؟
وتقول : إِنَّ الذِّئْبَ تَابْ ...!
مَاذَا يُفِيدُ خِطَابُكَ المَحْرُومُ مِنْ أَدَبِ الخِطَابْ ...؟
مَاذَا سَتَفْعَلُ ...؟
والمَكَانُ مُحَاصَرٌ بِجَمِيعِ مَنْ عَيَّرْتَهُمْ بالفَقْرِ أَوْ بالجَهْلِ والأَمْرَاضِ
أو حَذَّرْتَهُمْ سُوءَ المَآبْ ...!

قلت في نفسي بعد أن سمعت الخطاب : « والله لن أبيت في منزلي هذه الليلة ! » ، فقمت من فوري ، ولبست ملابسي مرة أخرى ، وتوجهت فورًا إلى الميدان !

الفصل الثالث

مَعَرَكَةُ الصَّبْرِ...

وكَمَا ذَكَرْنَا في القَصِيدْ ...
مِنْ نِصْفِ قَرْنٍ أو يَزيدْ ...
مَا فَلَّ في عَضُدِ الحَديدِ سِوى الحَديدْ ...
والشِّعْرُ وَاجَهَ خُوذَةَ الجُنْدِيِّ
وَاجَهَ كُلَّ دَبَّابَاتِ أعْدَائِي وإخْوَانِي وأبْنَاءَ العُمُومَةِ
ألْفَ جَيْشٍ للتَّخَابُرِ يَرْصُدُ الأمَلَ البَعِيدْ ...
وأنَا المُطَارَدُ والمُطَارِدُ و الطَّريدْ ...
مَا زلْتُ مِنْ ثَأري القَديمِ أسيرُ للثَّأرِ الجَديدْ ...
ثَأري القَديمُ مُوَجَّهٌ نَحْوَ العَدُوِّ
ولَكِنِ الثَّأرُ الجَديدُ مُوَجَّهٌ للرَّابِضِينَ عَلى العُرُوشِ
مُؤَلَّهِينَ وهُمْ عَبيدْ ...!

(من قصيدة « كلنا تحت الحصار » للشاعر ، كُتبت في ٢٠٠٩/١/١٠)

* الليلة الأولى في ميدان التحرير

كانت الطريق سلسة ، فلا إشارة توقفني ، ولا مرور يؤخرني ، ولا مارة تزاحمني ، فوصلت بسرعة كبيرة .

فوجئت حين وصلت بأن عدد الشباب المرابطين في الميدان قليل جدًّا ، أظنه لا يصل لخمسة آلاف شاب !

بدأت بجولة في الميدان ، فوجدت عددًا كبيرًا من الشباب يحرس المتحف المصري ، وقد قبضوا على بعض ضباط وأفراد الشرطة وهم يحاولون العبث به ، وكان ذلك استجابة لنداء المخرج السينمائي خالد يوسف عبر شاشات التلفاز في محطات مختلفة .

الدبابات تمركزت على مداخل الميدان كلها ، ولا وجود للشرطة نهائيًّا ، باستثناء بعض سيارات الشرطة المحترقة ، وبعض الغنائم التي غنمها المتظاهرون ، كالخوذات والعُصيّ !

ومن أغرب ما شاهدته مدرعة محترقة من مدرعات الجيش ، فسألت الشباب عنها ، فأخبروني أنها مدرعة تابعة للحرس الجمهوري ، وأن المتظاهرين أحرقوها ؛ لأنها كانت تنقل الذخيرة لقوات مكافحة الشغب ، ولست أدري حتى الآن مدى دقة هذا الكلام !

وكذلك ضُبِطَتْ سيارة إسعاف تنقل ذخيرة لهم ، ولهذا تم منع أي سيارات تعبر من الميدان إلا بعد أن يتم تفتيشها .

لم يحدث احتكاك بين الجيش والشعب برغم أن هناك دبابة داست أحد المتظاهرين بالخطأ ، وقد استشهد في الحال ، حسبما نقل لي بعض الواقفين في الميدان لحظة دخول المدرعات .

لم أجد أي شخص معروف في الميدان ، ولم أجد أي قيادي من القيادات الشبابية أو التاريخية ، وكنت قلقاً جدًّا ، لأن العدد كان قليلاً ، ولو أراد النظام تفريغ الميدان ممن فيه الآن لتمكن من ذلك !

كان من فوائد مبيتي في الميدان هذه الليلة أن الكثير من أهلي وأصدقائي شاهدوني في قناة الجزيرة مباشر ، فاطمأنوا عليَّ ، بعد أن تعذَّرَ تواصلهم معي بسبب انقطاع الاتصالات ، فقد ظهرتُ - حسبما قيل لي - في لقطة بين المتجمعين في الميدان ، ولم أعرف ذلك إلا بعدها بأيام .

حين حاولت أن أُنشئ إذاعة أخرى مثل التي أنشأتها في الخامس والعشرين من يناير لم أتمكن ، فجميع المتاجر مغلقة .

حاولت بعد ذلك (في صبيحة اليوم التالي) أن أشتري سماعات من بعض منظمي الأفراح ، ولكنهم بالغوا في الأسعار ، ولم يكن معي ما يكفي من المال ، وحين وجدت بعض الشباب أقاموا الإذاعة ارتحت ، وكذلك قام شباب الإخوان بعمل إذاعة صغيرة تأتي بها سيارة ، ثم تطورت هذه الإذاعة (إذاعة الإخوان) وأصبح لها الصوت الأعلى في الميدان .

كان ظني أن الناس قد تعبت من معركة البارحة ، وأنهم سيرتاحون ويبدلون ثيابهم ثم يعودون ، وهذا ما حدث ، إذ بدأت الجموع

تتدفق على الميدان منذ الصباح الباكر ، فكان العدد يفوق الخمسين ألفًا عند التاسعة صباحًا ، وكان يفوق الربع مليون مع أذان الظهر .

إذن ... فقد بدأت معركة الصبر !

بعد إلقاء مبارك لخطابه الأول في الساعة الأولى من يوم ٢٩ يناير ٢٠١١ صارت الجموع في غاية الحماس ، وفي غاية الغضب ، لقد كان خطاب مبارك يمثل قمة الصلف والغرور ، مما جعل كل مواطن مصري يشعر بإهانة موجهة له شخصيًّا .

* بداية الاعتصام ، والخطوة التالية

في صباح يوم السبت ٢٩ يناير ، حرمنا (السيد الرئيس) من افتتاح معرض الكتاب !

أذكر أن بعض أصدقائي المؤلفين قال لي : لو لم يكن لهذه الثورة سوى هذا الإنجاز لكفاها !

فسألت : لِمَ ؟

فقالوا : إنه حقد المؤلفين على الناشرين ، دعهم يخسروا قليلاً ...!

الأيام التالية كانت تجمع بين الفرحة بالتجمع الضخم ، والحيرة في الخطوة التالية .

سُئلت مئات المرات من أشخاص لا أعرفهم عما ينبغي أن نفعله ،

وكنت أجيب بأمرين : **الأول** : أننا باعتصامنا في الميدان نشكل قوة ضغط كبيرة جدًّا لا يمكن تجاهلها ، لذلك لا بد من الصمود في الميدان .

الثاني : أن الناس هي التي صنعت الثورة ، وسوف يحافظون عليها ، أي أن القرار في النهاية سيكون لهذه الجموع .

كنت قلقًا ، ولكني كنت متفائلاً جدًّا ، كنت أرى ما بشَّرْتُ به طوال شهور وشهور يتحقق ، يتحقق بشكل أعظم وأجمل مما تخيلته !

لقد كانت آرائي المبشرة بهذه الثورة مثار سخرية حتى بين النُّخبة !

أنا لا أذكر هذا الكلام الآن لكي أضيف سبقًا لشخصي الضعيف ، بقدر ما أذكره لكي يتعلم الناس أنه لا بد من قليل من التفاؤل ، ولكي يتعلموا أنه لا بد أن ننظر إلى بعض الآراء (غير الواقعية) بشيء من الرحمة ، لكي لا يهدر المجتمع طاقته الفكرية ، وقدرته على التجدد ، وذلك يكون بوأد الرأي المخالف ، فيصبح الناس مجتمعين على رأي واحد حتى لو كان خطأ .

استمر الاعتصام ، وطائرات الهيلوكوبتر تُحَلِّقُ فوقنا صباح مساء ، تُصَوِّرُ وترصد وترسل التقارير .

وفي يوم الأحد ٣٠ يناير ، حَلَّقَ فوق الميدان تشكيل (إف ١٦) مكوَّن من طائرتين ، وكان تحليقًا منخفضًا ، وقد تسبب ذلك في حالة من القلق بين المتظاهرين من شدة المفاجأة ، فبدأ المتظاهرون بالهتاف في شكل تلقائي : « حسني اتجنن ! » .

كانت الطائرتان غير محملتين بالذخيرة ، وما أعرفه أن حسني مبارك شخصيًّا هو من ضغط على سلاح الطيران لكي يقوموا بهذا العمل الأرعن ، وكان يظن أننا سنخاف !

أذكر أنني في هذه الليلة وقفت في الميدان في إحدى الإذاعات ، وقلت : « أول طلعة جوية كانت على إسرائيل ، وثاني طلعة جوية كانت على ميدان التحرير ، وثالث طلعة جوية على السعودية ...! » .

كانت الأخبار السيئة المتعلقة بالانفلات الأمني تقلق المتظاهرين بشكل جنوني ، وقد كان المخطط جهنميًّا ، فقد أراد الطغاة مقايضة الأمن بالحرية ، وكذلك أن يشغلوا هؤلاء المتظاهرين بالدفاع عن منازلهم .

لكن الذي لم يكن في حسبانهم أن هذا الشباب المصري العظيم سيرتِّبُ نفسه بحيث يحرس البيوت في الليل ، ويرابط في الميدان صباحًا ، وكذلك أن يتم ترتيب الأمور (بارتجال رائع) بحيث يظل الميدان ممتلئًا دائمًا ، فكأن الشعب المصري قد قام بعمل ورديَّات تضمن حراسة المنازل والممتلكات ، وتضمن كذلك استمرار الاعتصام .

* الصحافة المصرية والثورة

من أهم ما حدث هذا اليوم (الأحد ٣٠ يناير) أن الصحف المستقلة بدأت برفع سقفها ، وبدأت العناوين الرئيسة تبدو أكثر تحررًا مما عهدت من قبل .

فالمصري اليوم صدرت صفحتها الأولى بصورة ضخمة لأحد ضباط الجيش الذين انضموا للثورة وهو محمول على أعناق الثوار ، وفوق ذلك عنوان : « مؤامرة من « الأمن » لدعم سيناريو الفوضى » ...!

وجاءت صحيفة الشروق بعنوان : « الشعب يتقدم ومبارك يبدأ التراجع » !

كانت العناوين زاعقة ، وكان من الواضح أن الصحف المصرية قد اتعظت بما حدث في تونس ، فبعض الصحف هناك صدرت تُمَجِّد زين العابدين حتى آخر لحظة ، ثم فجأة أصبحت العناوين : « إرادة الشعب تنتصر » ...!

أما صحافة مماليك الدولة ، فكانت عناوينها تبعث على الضحك أو الغثيان ، ويكفي أن نعرف أن الأهرام صدرت في هذا اليوم تتحدث في صفحتها الأولى عن تظاهرات مكونة من عدة مئات يقودها مصطفى بكري ، ومحمد عبد القدوس ...!

كما لم يخل الخبر من تلميحات بالتدخل الخارجي ، والاتهام بأعمال السلب والنهب ، من خلال ذكر ما حصل في (أركاديا مول) ، وغير ذلك من طرق العرض الرخيصة التي تُؤَلِّبُ الرأي العام ضد الثورة .

وفي هذه الفترة بدأ بعض الناس بالقفز من سفينة مبارك الغارقة ، وأبرز من بدأ بذلك كان الدكتور مصطفى الفقي ، وقد قفز بمنطق المثل الشعبي « إن خرب بيت أبوك خد لك منه قالب! » ، ولكن موقفه لم ينطلِ على أحد !

لا شك في أنه لو كان لهذه الثورة جريدة مصرية تعبر عنها ، وتتحدث باسمها ، فسوف تكون الشروق ، ولكن وزارة إعلام الثورة كانت بلا منافس قناة الجزيرة .

لقد التقطت كاميرات الجزيرة أغلب المشاهد الحقيقية التي ستُخلّد هذه الثورة ، واستطاعت أن تنقل أكبر قدر من الأحداث لحظة بلحظة ، واستطاعت أن تحلل هذه الأحداث ، بل إنها استطاعت أن تشارك في توجيه الحدث من خلال بعض الرؤى التي طرحت على الشاشة من مفكرين كبار .

*** ميدان التحرير « المدينة الفاضلة » !**

في هذه الأيام ، أعني الأيام الأولى من الأسبوع الأول من الاعتصام بدأت تظهر « أخلاق الثورة » ، أو « أخلاق الميدان » ...!

وفي هذا الموضوع من الممكن أن نكتب مئات المواقف ، ومئات النوادر ، وأن نذكر آلاف الشرفاء .

لقد أصبح الجميع يشعر بانتماء لهذا المكان !

وهو انتماء من نوع خاص ، أنا لم أعرف مثل هذا الانتماء من قبل .

إنه أشبه ما يكون بانتماء الأطفال لحضاناتهم ...!

انتماء بدائي غيور ، وبرغم ذلك حدثت خلال فترة الاعتصام فتن بين المعتصمين لا يمكن تخيُّلها ...!

لقد أحببنا الميدان – برغم مشقة الاعتصام – حبًّا لا يتخيله أحد ، لقد أصبحت هناك حالة عشق تجعل المعتصمين غير راغبين في إنهاء الاعتصام ، حالة عشق تذكرني بقول الشاعر :

فَيَبْكِي إِنْ نَأَوْا شَـــوْقًا إِلَيْهِمْ

ويَبْكِي إِنْ دَنَوْا ، خَوْفَ الفِرَاقِ !

فَتَسْخُنُ عَيْنُهُ عِنْدَ التَّنَـــائِي

وتَسْخُنُ عَيْنُهُ عِنْدَ التَّــلاقِي !

فبرغم صعوبة النوم على الرصيف فقد كنا نشتاق للميدان حين نخرج منه ، وأنا أزعم أن هناك آلافًا من المعتصمين كانوا غير راغبين في فض الاعتصام أصلاً ، وذلك من شدة استمتاعهم بالجلوس في الميدان ...!

كنا طوال اليوم نرى شبابًا وشابات يوزعون ما تيسَّر من الطعام (وأكل واحد يكفي عشرة) ، وآخرين يجمعون القمامة .

لا يمكن أن تجلس ربع ساعة في أي مكان في الميدان تقريبًا بدون أن يمر عليك شخص يسألك عن أي قمامة تريد التخلص منها ، أو بدون أن يدعوك أحد لقطعة (سميط) ، أو بضع تمرات .

جلسنا في الميدان حوالي أسبوعين متصلين بدون شكوى تحرش واحدة ، لم نسمع شخصًا واحدًا يستغيث بسبب سرقة هاتف محمول أو أي غرض كان .

كان الناس يتعاملون بعضهم مع بعض بكرم ونُبل جديدين على الشعب المصري ، أو هما على الأقل جديدان على هذا الجيل .

أحد أصدقائي (من غير المقيمين في الميدان) كان يمشي معي في الميدان ، وعطش ، فأراد شراء زجاجة مياه معدنية من بائع يقف في الطريق ، فأخذ الزجاجة ، ثم سأل البائع : بكم ؟

فأجابه البائع : لو معاك يبقى ٢ جنيه ، لو ما معاكش خدها وامشِ !

أحد الأصدقاء كان يمشي في الميدان ويحاول أن يجد من يبيع شيئًا يُؤكل ، وكلما سأل عن أي مكان يبيع طعامًا وجد الناس يُصِرُّونَ على دعوته على ما عندهم من طعام !

لم تحدث أي مشاجرة تذكر بين الناس ، برغم الزحام ، وبرغم الضغوط التي يتعرض لها المعتصمون .

لم يحدث أي مشاجرات إلا بعد أن نجح الأمن في زرع الفتنة بين المعتصمين ، وذلك في مرحلة من مراحل الاعتصام ، حين نجح في إدخال بعض أنصار الحزب الوطني لمحاولة تثبيط العزائم .

المكان الوحيد الذي كان يخضع لأخلاق ما قبل الثورة ، هو المنصَّات الإعلامية والإذاعات الموجودة في الميدان !

كانت شهوة الظهور في هذه الأماكن تضخ طاقة سلبية في المكان ،

حتى أنني زهدت في كثير من الفعاليات التي دُعيتُ إليها ، واعتذرت عن المشاركة في كثير من الندوات ، وحين حاول بعض الشباب أن يدفعوا بي لكي أكون مسؤولاً عن إحدى هذه الإذاعات تهربت منهم .

أذكر أنني بعد إلحاح وضغط استجبت لإحدى الإذاعات في الميدان ، وذهبت في الموعد المحدد ، فوجدت فوضى عارمة ، ووجدت عشرات المتسلقين الذين يرغبون في الكلام ، ووجدت شهوة حب الظهور تكاد تطفئ ما أشعر به من مشاعر (المدينة الفاضلة) ، الأمر الذي دفعني لافتعال معركة لكي أهرب من هذا الجو !

وبالفعل ، أصررت على النزول من على المنصة ، والانصراف ، والسبب أن مزاجي قد تعكر برؤية هذا التكالب على الميكروفون ، فأصبحت غير مهيأ نفسيًّا لإنشاد الشعر ، كان الشخص الذي يدعوني إلى المنصة رجل محترم اسمه الأستاذ حسين الزعويلي ، وكنت أخجل منه (هو ورفاقه) من شدة أدبه ، ولكن الاستفزاز الذي كان موجودًا عند المنصة فاق قدرتي على الصبر .

بسبب هذا الخُلق السَّيِّئ الذي كان عند المنصات لم أُلْقِ شعرًا في الميدان إلا قليلاً جدًّا ، برغم دفع من حولي لي لكي ألقي ، فكانت قصائدي تُلقى مسجلة في الميدان ، برغم وجودي بشحمي ولحمي ، واعتذرت عن أغلب الدعوات ، وحين قبلتُ كنت دائمًا أختصر ، فأُلقي لعدة دقائق ثم أنصرف !

ومن نوادر هذه الإذاعات أن غالبية المتكالبين على الميكروفون هم من الشيوخ وكبار السن الذين لم يكن لهم دور في هذه الثورة، ومن الذين لا فائدة تُرجى من كلامهم مع الجمهور ، بل إنني أزعم أن كثيرًا من المتحدثين صمته أفضل من كلامه بكثير .

وهنا لا بد من شهادة حق ، وهي أن الإذاعة الرئيسة كانت تحت إدارة الإخوان المسلمين ، وبرغم أنهم لم يتمكنوا من تنظيم هذه الإذاعة كما ينبغي إلا أنني أشهد بأنهم لم يحتكروا الحديث لأنفسهم ، أو حتى للتيار الإسلامي وحدَه ، بل كانت الإذاعة ممثلة لكل القوى التي في الميدان ، بل لكل من يملك صفاقة كافية للإصرار على الحديث .

وقد كان أداء الإخوان طوال فترة الاعتصام ممتازًا ، فقد أدوا واجبًا عظيمًا في (لجنة النظام) ، بدون أن يرفعوا شعاراتهم ، وبدون أن يحتكروا العمل في هذه اللجنة ، فكانت لجنة النظام مفتوحة لكل المتطوعين .

ولا بد هنا من أن أخص بالذكر د. محمد البلتاجي القيادي الإخواني المعروف ، فقد كان يحمل عبء إدارة هذه الإذاعة ، وعبء لجنة النظام كلها ، مع فريق عمل كبير وكفء، وكان يعمل طوال اليوم بلا كلل ولا ملل ، وكان لذلك أثر كبير في الميدان .

* حصار الميدان ، وشعور نبتة الصَّبَّار

في نفس هذه الفترة بدأت بعض الضغوط على المعتصمين ، وتمثَّلَتْ في منع دخول الماء والغذاء والدواء إلى الميدان .

وبدأت عشرات القصص تتوالى عن أناس حاولوا إدخال المؤن إلى الميدان فتمت مصادرتها من الجيش وإلقاؤها في النيل .

كان من الواضح أن لأمن الدولة دخلاً في هذا الأمر ، فحسب روايات الشهود كانت القوات التي توقف الناشطين قواتٍ غير نظامية مجهولة الهوية ، وهناك بعض الشهادات التي تؤكد أن الشرطة العسكرية قد صادرت بعض المؤن ، ولكن يبدو أن ذلك قد تم بتوجيهات من أمن الدولة أيضًا .

في هذه اللحظة بدأت أشعر بشعور نبتة الصَّبَّار الواقفة في حرِّ الصحراء ، تلك النبتة الرائعة الجميلة التي تقف في الحرِّ لسنوات وسنوات ، صامدة حتى إذا انعدم الماء ...!

إذن ... نحن الصَّبَّار ، وسنصمد هنا برغم كل المنع والقمع ...!

كنت شديد التشاؤم حيال هذا الأمر ، وكنت أخشى أن يقوموا بتجويعنا في الميدان بهذا الشكل ، وبدأ الحديث عن (شِعْبِ أبي طالب) يتكرر ، ولكن الظن خاب بفضل الله أولاً ، ثم بفضل تحايل الشباب على كل ما قام به مَن يحاصرنا ثانيًا ، فقد تفنن الشباب في طُرُق إدخال المؤن إلى الميدان .

في هذا اليوم هاتفني زوج أختي الدكتور هشام المرسي وهو طبيب مقيم في قطر ، وأخبرني أنه هنا ليشارك في مليونية يوم الثلاثاء ، وقد جاء خصوصًا ليشارك في الثورة ، وأخبرني أنه في الميدان .

قلت له نلتقي غدًا بإذن الله ، ولكن لم يحدث ذلك اللقاء ، لأسباب سأسردها بعد قليل .

* الدكتور البرادعي في ميدان التحرير

في هذا اليوم (٣٠ يناير) قرَّر الدكتور محمد البرادعي زيارة ميدان التحرير .

كنت قلقًا جدًّا من هذه الزيارة ، لأن تدافع الناس من الممكن أن يكون خطرًا عليه ، ولأن تحرك الدكتور البرادعي نفسه أمر خَطِير في هذه الظروف ، فمن الممكن ارتكاب أي عملية اغتيال الآن لأي شخصية عامة ، ثم يُدَّعَى أنها تَمَّت على يد بعض البلطجية أو الخارجين عن القانون ، وأنها كانت بهدف السرقة !

الحقيقة أنني كنت مرعوبًا من سيناريو الاغتيال هذا أشد الرعب ، وهاتفت الأخ الأستاذ علي البرادعي وأخبرته أنه يجب على الدكتور أن يغادر منزله ، وأن يكون محل إقامته غير معروف ، وكان ذلك منذ جمعة الغضب ، وفور حدوث الانفلات الأمني ، ولكن - وللأسف - لم يتجاوب معي في هذا الأمر .

بسبب قلقي من أي حادث ، تحدثنا مع الدكتور محمد البلتاجي لكي تؤمن لجنة النظام دخول البرادعي وخروجه ، وقد تجاوب معنا البلتاجي ، وبرغم كثرة مشاغله في الميدان أمَّن لنا مئات من الشباب لكي يحيطوا بالدكتور البرادعي ، ولكن بعض الأشخاص قليلي الكفاءة تخطوا كل هذه الترتيبات ، بما كاد أن يؤدي إلى كارثة .

جاء الدكتور البرادعي ، وكانت الخطة أن يتحدث في وسط الميدان ، وكنت في انتظاره في وسط الميدان ، ولكن حدث تزاحم منع وصوله لوسط الميدان أصلاً ، فتحدث في مدخل الميدان من جهة كوبري قصر النيل ، جهة جامعة الدول العربية ، وبعد ذلك جاءتني استغاثات من الشباب حول البرادعي ، وأن هناك حالة هرج ومرج قد تؤدي إلى كارثة .

ركضت بأقصى سرعة فوجدت الرجل يكاد يموت من شدة التدافع ، لدرجة أنه كان يسير شبه محمول على أكتاف أحد ناشطينا واسمه مصطفى إبراهيم ، وأوصلناه بشق الأنفس إلى سيارته ، وغادر بعد أن كاد الأمر يتطور إلى ما لا تحمد عقباه .

للأسف ... تولى تنظيم دخوله مجموعة من الشباب لا يدركون خطورة ما يفعلونه ، لذلك قرروا أن يُدخلوه بدون أي كردونات من حوله ، بل قرروا أن يدخل وأمامه بعض الأطفال ، وكأنه في رحلة مدرسية ، وللأسف تخطوا كل الترتيبات التي كنا قد رتبناها ...!

أسوأ ما في مشهد دخول البرادعي للميدان أن الهتافات ضد البرادعي

كانت عدائية جدًّا ، وأنا بدوري كنت أُلاحظ تراجع شعبيته في مصر ، وفي الميدان .

قلت لمن حولي في ذلك الوقت : إن البرادعي من أهم أسباب اندلاع هذه الثورة ، ولكني أخشى أنْ يحرم من قطف الثمار !

* كيف تحايلنا على الجيش لإعلان موقفه ؟

تمت الدعوة لتظاهرة مليونية يوم الثلاثاء الأول من فبراير ، وفي هذه الليلة حدث شيء مهم ، فقد اجتمعتُ في مكتبي الشخصي القريب من ميدان التحرير (في شارع ٢٦ يوليه) مع مجموعة من الناشطين في الحملة الشعبية لدعم البرادعي ومطالب التغيير ، وكان فيها الدكتور مصطفى النجار ، والأخ عبد المنعم إمام ، والدكتور أحمد خليل ، والدكتور علاء عبد السميع ، والمهندس عمرو علاء (من الشرقية) ، والدكتور أحمد منير ، والمهندس محمد عيد عتمان ، ومصطفى إبراهيم ، واتفقنا على ضرورة أن نحاول أن ندفع الجيش لإعلان موقفه ، فكتبنا بيانًا على الكمبيوتر ، وطبعناه ، ثم مسحناه تمامًا من على أجهزة المكتب ، ووزعناه في الميدان فجرًا .

كان خلاصة ما في البيان مطالبة للجيش بأن يعلن موقفه من الأحداث ، وأن يعلن مع أي شرعية يقف ، مع الرئيس الذي سقطت شرعيته بنزول الجماهير ، أم مع الشعب العظيم الذي نزل إلى الشوارع مطالبًا بحقه في الحياة ؟!

كما دعا البيان إلى جمعة الرحيل (الرابع من فبراير) وهدد بأن الجماهير ستتحرك إلى القصر الجمهوري ، والبرلمان ، والإذاعة والتلفزيون ، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يُذكر فيها هذا الأمر ، أو يُلمح فيها بهذا التصعيد .

وقد تم توزيع البيان على العديد من الصحفيين في الميدان ، وتم توصيله لبعض ضباط الجيش المرابطين على دباباتهم في الميدان ، وذلك لكي يصل البيان إلى الجيش .

وفوجئنا بعدها بعدة ساعات ببيان يصدر من القوات المسلحة يعلن أن الجيش مع الشعب ، وأن القوات المسلحة لم ولن تستخدم العنف مع المتظاهرين أبدًا ...!

ولم يكن أحد منا يتخيل رد الفعل السريع والإيجابي بهذه البساطة ، أو على الأقل لم أكن أتوقع أنا شخصيًّا ذلك ، وأذكر أنني قلت للمجموعة التي اشتركت معي في صياغة هذا البيان إن الجيش سيلزم الصمت ، وإنه لن يتكلم حتى لو أصدرنا ألف بيان !

اتضحت الصورة أمام الجميع ، واتضح أن الجيش لن يضرب الناس ، وأننا الآن نستطيع أن نضغط على مبارك ونحن مطمئنون أن هذه المدرعات لن تفتح جحيمها علينا !

كان هذا الهاجس داخل القلوب والعقول ، وإن لم تنطق به الألسنة .

* المليونية الأولى ، وخطاب مبارك الثاني

في نفس هذا اليوم الثلاثاء الأول من فبراير ٢٠١١ ، جاء المصريون إلى ميدان التحرير بالملايين ، قُدِّرت الأعداد يومها بمليونين ، وقُدرت الأعداد في مدينة الإسكندرية بأكثر من ثلاثة ملايين من البشر !

إنها أكبر تظاهرات في تاريخ هذا البلد العظيم ، ولم نكن نتخيل أننا سنشهد تظاهرات أكبر من هذه بعدها بأيام .

بعد أن انتهت التظاهرة ، أعلن التلفزيون الرسمي عن كلمة سيلقيها مبارك للأمة ، وجلسنا ننتظر وننتظر ، حتى فرغ منا الصبر ، وظهر - كعادته - بخطاب قميء ، خالٍ من البلاغة واللباقة ، وتذكَّرَ أخيرًا أن في مصر شهداء قد قتلوا برصاص أمنه ، وتذكَّرَ أخيرًا أن في مصر مطالب ومظالم ينبغي أن ينصت لها !

وكانت الطامة الكبرى ، إذ أعلن في خضم هذا الكلام المائع أنه « **بغضِّ النَّظَرِ عن الظَّرْفِ الراهن** » فإنه لم يكن ينتوي الترشُّح لفترة رئاسية جديدة ، في كذب واضح ، واستخفاف صفيق بقيمة وتأثير التظاهرات في إملاء الشروط عليه ، كلمة « أَنتوي » أصبحت من حينها مادة للتندُّر في أوساط الفيس بوك وتويتر ، وتم استخدامها كدلالة على إظهار المرء خلاف ما يبطن على سبيل التهكم.

بعد ذلك بدأ باستعطاف الجماهير بخطاب عاطفي سخيف ، وأنه سيعيش ويموت ويدفن في مصر !

بعد أن انتهى الخطاب مباشرة قلت لكل من حولي لا بد من تصعيد فوري ، ولكن لم يصغ أحد .

خلال ربع ساعة كانت ردود الأفعال كالتالي :

- رفض تام ممن هم داخل الميدان لكل ما قدمه مبارك ، وإصرار على مواصلة الاعتصام حتى يرحل .
- ارتياحٌ تامٌّ لكل ما قدَّمه مبارك من الكثيرين ممن خدعهم خطابه وهم خارج الميدان .

جاءتني عشرات المكالمات التي تصف الأجواء (خارج الميدان) ، نساء يطلقن الزغاريد في الشرفات ، (شربات) يوزع مجانًا في الطرقات ، بل وصف لي البعض مشاهد (كسر قلل) في بعض الأحياء .

* انقسام الشعب بعد الخطاب الثاني

المهم ، أن الشعب المصري انقسم إلى وجهتي نظر ، أقلية ضد خطاب مبارك تمامًا ، ولا ترى فيما قدمه أي شيء يرضيها لكي يفك الاعتصام ، وأكثرية معه تمامًا ، ولا ترى أي معنى لمواصلة الاعتصام ، بل ترى أن مَن يواصل اعتصامه يؤذي الوطن ويخربه ، وينبغي أن يؤخذ على يده !

كنت من الذين تنبهوا إلى خطورة الوضع منذ الدقائق الأولى ، وقلت للعديد ممن هم حولي ، لو تحركنا الآن إلى البرلمان لن يستطيع أحد أن يوقفنا ، وإذا انتظرنا إلى الغد ستكون الكفَّةُ في غير صالحنا ، وحاولت

بكل الطرق أن أدفع الناس في هذا الاتجاه ، وحين تلكأ من حولي ، أخذت بعض الأصدقاء وذهبنا في جولة حول مجلس الشعب لكي نرى حجم التحصينات التي حوله ، وكانت ضئيلة جدًّا .

قلت للشباب : لو تحركنا الآن ، سنصل إلى البرلمان قبل أن تصل الأوامر بكيفية التعامل معنا ، وكان عندي ما يطمئنني بسبب بيان الجيش في الصباح ، ذلك البيان الذي تعهد فيه الجيش بعدم استخدام العنف مع المتظاهرين .

حاولت إقناع الشباب بأن السكوت خطير ، وبأننا لا بد أن نُصَعِّدَ ، ولا بد أن تصحو القاهرة غدًا فتجدنا قد كسبنا مساحة جديدة بدلاً من الانتظار في أماكننا حتى يجهز علينا هذا العُتُلّ !

وإذا كان هنالك من قلق من أن يندس بيننا من يتلف مبنى البرلمان ، فيكفينا أن نعتصم في حديقة مجلس الشعب دون أن نقتحم المبنى .

في هذه اللحظة ، عرفت قيمة الإذاعة ...!

لم يكن من الممكن أن أتطفَّلَ على أي إذاعة في الميدان لكي أدعو الناس إلى التحرك إلى البرلمان ، لذلك دفنت الفكرة في مهدها !

بعد أن انتهى الخطاب تعرَّض المعتصمون لاختبار قاس جدًّا ، فبدأت الاتصالات تنهال على كل مَن هو في الميدان من أقربائه وأحبائه ، الجل (ممن هم خارج الميدان) يطالب بفك الاعتصام .

لهذا السبب أعتبر هذه الثورة ثورة الشباب !

لقد بدأ الشباب هذه الثورة ، وإني لأشهد أن الشباب هم مَن صمد في هذه اللحظة ضد جميع أشكال الضغط والابتزاز النفسي ، والتي تعرض لها المعتصمون من أقرب الناس لهم .

لقد كان الشباب في ميدان التحرير (وهم أغلبية المعتصمين) يرون ما لا يراه الآخرون ، كانوا يلمسون الحُلم بأيديهم ، ويبصرون عين الماء التي يحسبها الآخرون سرابًا !

إن هذا الجيل لم يرض أن يخضع لمن سبقه من الأجيال ، وقد تمثل قول الشاعر :

إِنَّا وإِنْ أَحْسَابُنَا كَرُمَتْ
لَسْنَا على الأَحْسَابِ نَتَّكِلُ
نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا
تَبْنِي ، ونَفْعَلُ مِثْلَمَا فَعَلُوا !

هاتفني أحد الأصدقاء في تلك الليلة (وهو يطالبني بفك الاعتصام ، وكأن الناس تحت أمري !!!) ، وبعد أن قلتُ له إنني مجرد فرد من ملايين ، ولن يستمع لي أحد ، وأنني لا أرى مبررًا لفك الاعتصام ، قال لي كلامًا شديد القسوة ، ملخصه أننا نحرث في البحر ، وأنني شخص معقد نفسيًّا ، دائمًا أحب خوض المعارك الخاسرة ، وأن الله سيحاسبني (ومعي الموتورون الثورجية من أمثالي) على المصائب التي سيدخلها هذا البلد بسببنا ...!

أشد ما كان يغيظني في تلك الفترة هذه المكالمات التي كانت تأتيني وتطالبني بفك هذا الاعتصام ، وكأنني أمسك بريموت كنترول يحرك الناس ...!

لقد كان هناك ملايين البشر يظنون أن هناك أحدًا في الميدان يستطيع أن يتحكم في الجماهير ، وهذا خطأ !

إن تركيبة الميدان كانت كالتالي :

حوالي عشرة بالمئة (وربما أكثر قليلاً) من الإخوان المسلمين .

وحوالي خمسة بالمئة (وربما أكثر قليلاً) من الناشطين السياسيين ، والحركات الاحتجاجية المختلفة ، والأحزاب ... إلخ.

معنى ذلك ، أن حوالي ثمانين بالمئة من الموجودين في الميدان عبارة عن ... بشر !

ناس ...!

شعب ...!

أُناسٌ لا غرض لهم ، ولا قائد لهم ، وليس تحركهم سوى غريزة المصري في العزة والكرامة والبقاء والخبز والحياة والحب ...!

كنت دائمًا أوضح لمن يتصل بي أن هذا شعب عظيم ، ولا يستطيع أن يملي أحد عليه قرارًا ، لقد تحرر الناس ، وهم مَن يُقرر ، ولا أحد يُقرر لهم ، وكانت الغالبية لا تفهم هذا الكلام .

كانت ليلة ليلاء ، وكان جميع الحكماء يدركون معنى أن تفقد الثورة الشعب !

إنه فشل لا محالة للثورة !

الشعب هو العمق الاستراتيجي لهذه الثورة ، وهو خزان الطاقة الحقيقي الذي يضمن استمرارها .

في هذه الأيام بدأت بعض الاتصالات تصل للدكتور مصطفى النجار من طرفين ، الطرف **الأول** حكومة شفيق ، فكانوا يحاولون الاتصال بنا ، ويحاولون أن يجلسوا معنا لإجراء حوار وطني ، كان الشخص الذي أرسله الفريق شفيق هو الدكتور يحيى مصطفى كمال حلمي ، وكان ردُّنا رفض الحوار .

الطرف **الثاني** الذي اتصل بنا ، بعض المجموعات الشبابية التي رغبت أن ننضم إليها لتكوين بعض الائتلافات التي تمثل الثورة .

حين استشارني مصطفى في هذا الأمر ، قلت له إنني لا أحب أن أكون طرفًا في مثل هذا الأمر ، لأنني لا أمثل إلا نفسي ، ولستُ مُخَوَّلاً للحديث باسم الناس بأي شكل من الأشكال ، وحاول أن تنبه هذه المجموعات إلى خطورة ما يفعلونه ، وحين أخبرني عن بعض الأشخاص المنتمين لبعض هذه الائتلافات عرفت أن في الأمر شيئًا ، وأن وراء الأكمة ما وراءها ، لذلك ابتعدنا عنهم تمامًا .

أحب هنا أن أُنبه إلى أنني لا أتحدث عن ائتلاف بعينه ، لأن جميع الائتلافات التي تكونت اتصلت بنا ، وجميعها (بلا استثناء تقريبًا) قد لقي نفس الرد ، فاعتذرنا للجميع اعتذارًا جميلاً هادئًا ، بدون أي مزايدات أو مشاحنات ، ولكن (وللأسف الشديد) حملت لنا بعض هذه الائتلافات ضغينة بسبب رفضنا الانضمام لها ، مما تسبب في بعض الاشتباكات فيما بعد ، وحدثت بعض المزايدات ومحاولات التشويه لشخصي من أُناس تاريخهم لا يشرف ، وبيوتهم من زجاج .

إن أشهر هذه الائتلافات هو أسوأها ، ويبدو أن هدف الائتلاف هو الشهرة في حد ذاتها ، وكثير من قيادات هذه الائتلافات عملوا معي في الحملة الشعبية لدعم البرادعي واضطررت إما لتجميدهم ، أو لفصلهم في بعض الأحيان ، وذلك لأسباب مختلفة ، فالبعض منهم ارتكب مخالفات أخلاقية ، والبعض ارتكب مخالفات مالية ، والبعض لم يكن يفعل شيئًا سوى خلق الانشقاقات في صف الحملة !

الفصل الرابع

العُنْفُ لَنْ يُفِيد...

اضْرِبْ ... فَلَسْنَا نخَافُ السَّوْطَ والوَجَعَا

اضْـرِبْ ... لأَنَّـكَ تَبْـدُو خَائِفًـا جَزِعَـا

الضَّـرْبُ ... قَشَّـةُ قَصْـمِ الظَّهْـرِ في بَلَـدي

فَاضْرِبْ .. فَمَا كُنْتَ في ذا الأمْرِ مُبْتَدِعَا !

كَـمْ مَـارَسَ الضَّـرْبَ قَـوَّادٌ وعَـاهِرَةٌ

كِلاهُمَـا لِصُـنُوفِ العُهْـرِ قَـدْ رَضَـعَا

لا الضَّـرْبُ يُجْـدي.. ولا الأَجْنَـادُ تُرْهِبُنَـا

كَـمْ ضَـارِبٍ قَـدْ دَفَنَّـا بَعْـدَمَا قَمَعَـا !

يَـا مَــنْ بَــدَا بَارِعًـا في ضَــرْبِ إخْوَتِــهِ

لكِــنْ بِضَــرْبِ عَــدُوِّ الأَرْضِ مَـا بَرِعَـا !

رَاقِـبْ خُطَـاكَ... فَتِلْـكَ الأَرْضُ نَاقِمَـةٌ

والأَرْضُ تَطْـرَحُ دَوْمًـا جِـنْسَ مَـا زُرِعَـا

مَـا زِلْـتَ تَضْـرِبُ إِخْوَانَــا بِإِخْــوَتِهِمْ

حَتَّــى ظَنَنْــتَ بِــأَنْ فَرَّقْتَنَــا شِــيَعَا

اليَــوْمَ كُــلُّ رجَــالِ الحَــقِّ قَــدْ وَقَفَــتْ

هَـلْ فَـرَّقَ الضَّـرْبُ هَـذا الشَّـمْلَ أَمْ جَمَعَـا ؟

وَحَّـدْتَ كُـلَّ جُنُـودِ الـرَّفْضِ في بَلَـدي

فَاشْـكُرْ لِضَـارِبِنَا ، وافْـرَحْ بِمَـا صَـنَعَا

الظُّلْــمُ نَــارٌ عَلَــى الظُّــلامِ تَحْــرقُهُمْ

مَهْمَــا بَــدَا عَرْشُــهُمْ بالجُنْــدِ مُمْتَنِعَــا

فَاحْــذَرْ مِــنَ النَّــارِ .. إنَّ النَّــارَ مُحْرِقَــةٌ

ولْتَرْتَــدِعْ مَــرَّةً .. لَــوْ كُنْــتَ مُرْتَــدِعَا !!

(من قصيدة « رسالة في فنون الضرب » للشاعر ، كُتبت في ٢٠٠٤/١١/٢)

*** موقعة الجمل ، بطولة شعب !**

بعد خطاب مبارك – في الأول من فبراير – نمنا ، وكان ذلك بعد الفجر ، وحين استيقظتُ كنت في الخيمة في وسط الميدان ، ومع أذان الظهر فوجئت بصراخ من الناس من حولي يطلبون النجدة ، فهرعت ، فوجدت أنصار الحزب الوطني يحملون صور مبارك في وسط ميدان التحرير !

لقد وصل المئات منهم إلى قلب الميدان ، في منتصفه ، عند (الصينية) !

تدافعنا جميعًا نحوهم ، وحاصرناهم بكل ما أوتينا من قوة ، استطعنا بعد ساعتين تقريبًا من دفعهم خارج الصينية باتجاه المتحف المصري ، وميدان عبد المنعم رياض .

كانت الشمس ساطعة ذلك اليوم ، مما أرهقنا بسبب الحر وشدة التدافع ، وأذكر أني قابلت زوج أختي (المهندس حسام خلف) ، وحينها عرفت أن زوج أختي الصغرى (الدكتور هشام المرسي) الذي هاتفني منذ يومين قد اختفى مساء الاثنين في ظروف غامضة .

حين دفعنا هذه الجموع إلى جهة المتحف بدؤوا بإلقاء الحجارة علينا ، وبعد العصر بدأ وصول الجِمال والخُيول .

لقد كانت حماقة لا مثيل لها ، من سياسيين لا يفقهون معنى السياسة ، ومجموعة من رجال الأعمال الحمقى ، تصوروا أنهم

يستطيعون أن يهزموا مئات الآلاف من البشر ببعض البغال والحَمير والجمال !

مهما كتبت في وصف حماقة مَن موَّل ونفَّذ هذا العمل ، فلن أستطيع أن أوفيه حقه من الحماقة !

وكما قال الشاعر :

لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ يُسْتَطَبُّ بِهِ

إلا الحَمَاقَةَ أَعْيَتْ مَنْ يُدَاوِيهَا !

من الجدير بالذكر أن هؤلاء البلطجية كان من بينهم بعض المواطنين الذين تأثروا بخطاب مبارك ، وجاؤوا يحملون صور الرئيس المخلوع ، ويطالبوننا بالرحيل ، وكان هذا من أكثر المشاهد التي آلمتني ، لأن وجود غير المأجورين من الممكن أن يتم استغلاله لإظهار جميع المأجورين بمظهر حسن .

أذكر في هذه اللحظات أنني شاهدت بعض المصورين يصوِّرون الأحداث من فوق إحدى البنايات ، والغريب أنهم كانوا يرتدون زيًّا عسكريًّا مموهًا مثل زي القوات المسلحة ، وحتى الآن لا أعرف ما تفسير ذلك ...!

* بطولة ضابط جيش

في هذه المعركة ، وقبيل العصر حدث حادث لولا ستر الله لكانت قد وقعت مذبحة في الميدان .

ففي الوقت الذي كانت كل جهودنا منصبة على صدِّ الغازين لكي ندفعهم باتجاه المتحف المصري ، هاجم الميدان مئات من البلطجية المسلحين بالأسلحة البيضاء من جهة شارع طلعت حرب .

هذه الجهة تقع في ظهرنا - لمن لا يعرف خريطة الميدان - وبالتالي لم نشعر بهذا الهجوم من الأساس ، وخطورة هذا الهجوم أنه سيدخل إلى وسط الميدان مباشرة ، حيث يجلس النسوة والأطفال في مأمن من الهجوم الأكبر القادم من جهة المتحف ، ولكن الله جنَّد لنا جنودًا من عنده فصدَّ عنَّا هذا الهجوم الذي لو تم لأوقع خسائر بشرية في نساء وأطفال لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم .

ما حدث ، أن الله شاء أن يكون على هذا الثغر ضابط جيش محترم ، برتبة نقيب ، واسمه ماجد بولس ، وقد استنجد به الشباب الواقفون عند الشارع لكي يغيثهم من هؤلاء البلطجية ، فصرخ فيهم : « أعمل إيه ؟ أنتم مصريّون ، وهم مصريّون ... ! » .

ثم أمسك بمسدسه ، ووضعه في فمه وكأنه سيطلق النار على نفسه !

فصعد له الشباب على دبابته في موقف إنساني يعجز اللسان عن

وصفه ، وبدؤوا بتهدئته ، فما كان منه إلا أن أمسك ببندقيته (الميري) ، وبدأ بإطلاق النار في الهواء ، ففر المهاجمون كالجُرذان ! وكما قال المثل: (عساكر الكرا ماتضربش نار !).

ولولا ذلك لحدثت مذبحة لا يعلم مداها إلا الله ، ولولا النقيب ماجد وما فعله لسالت دماء أطفال ونساء ، ولكن الله سلم .

* استمرار المعركة حتى الفجر

استمرت المعركة ، وفي هذه الليلة حدث ما لا يمكن تصوُّرُه !

كان الهجوم أكبر من أن يرصده شخص واحد ، لذلك ، سأروي ما شاهدته أنا ، وما شاهدته (جزء من الحقيقة) ، وليس كلها بالطبع .

لقد كان الجو العام جو معركة بكل ما تعنيه الكلمات ، وكان الجميع يخوضها بروح الفداء والشهادة ، كان الجميع يخوضها والموت أقرب من الحياة للخائضين ، تذكرت قول الشاعر :

قَدْ عَلِمَ المُسْتَأْخِرُونَ في الوَهَلْ

إذا السُّيُوفُ عُرِّيَتْ مِنَ الخَلَلْ

إنَّ الفِرَارَ لا يَزِيدُ في الأَجَـلْ

بهذه الروح ، خاض الشباب هذه المعركة ، (يا روح ما بعدك روح) !

لا بد في البداية أن أوضِّحَ أن الجو العام أصبح خلية نحل ، فكل مَن في الميدان جندي يؤدي عملاً ما .

المئات من الشباب يكسرون كل شيء صلب ويحولونه إلى أحجار للدفاع عن الميدان .

وهناك من تفنن في استخراج ألواح الخشب والحديد لتكوين دروع يستخدمها الشباب لحماية أنفسهم من الحجارة .

الجميل أن هذه (الأحجار المتكسرة) التي كانت في المقام الأول مُعَدَّةً للدفاع عن النفس أو للهجوم على « الأعداء » ، أبى الشعب إلا أن يحوِّلَها فيما بعد إلى أعمال فنية رمزية جميلة، منها لوحة الهلال والصليب المتعانقين على أرض الميدان ، وقد رسمت بالحجارة المتكسرة، هذه الصورة تبثها قناة الجزيرة مباشر في فواصلها الرئيسية بين البرامج .

وهناك أيضًا مئات من الشباب يقومون بعمل موسيقى تحميسية ، وذلك من خلال الضرب على الأسوار الحديدية في الميدان بأي جسم معدني ، مما صنع موسيقى ضخمة جدًّا في الميدان ، على الإيقاع العسكري (مارش) ، وحمَّس كل الشباب ، وألقى الرعب في قلوب المهاجمين .

مئات من الأطباء قاموا بعمل مستشفى ميداني صغير لعلاج الإصابات الصغيرة الناتجة عن الحجارة التي يلقيها المهاجمون .

وهذا المستشفى يقع بعد الصفوف الأولى بقليل ، وهناك مستشفى آخر أكبر ، وأكثر تنظيمًا ، كان بجوار مطعم (هارديز) ، وقد أنقذ الأطباء العاملون فيه أرواحًا كثيرة .

مئات من الفتيات يحملن الماء والتمر والحجارة للشباب الذين يواجهون العدوَّ في الصفوف الأولى .

باختصار ... كان عشرات الآلاف - بدون أي مبالغة - مشتركين في هذه المعركة الكبيرة .

وقد اخترع الشباب عشرات الحيل لحماية أنفسهم من هذا الهجوم .

حاولنا أنا ومن معي من الناشطين المساهمة في صد هذا الهجوم البربري ، فذهبنا فوق إحدى العمارات مُحمَّلين بالطوب ، حملناه في عباءة كانت معي ، وصعدنا عشرة أدوار كاملة ، وكان ذلك أمرًا مرهقًا جدًّا .

المفاجأة أن الشباب في العمارة كانوا يفرغون الأحجار في كل طابق ، وتتولى مجموعة توصيل الأحجار إلى الطابق الذي يليه ، بحيث لا يستهلك شخص طاقته في صعود عشرة طوابق !

ولكننا صمَّمنا على الصعود لأننا كنا نرغب في الاستكشاف ، ولأننا كنا نحب أن نرى إمكانية أن نساهم في المعركة من خلال وجودنا فوق أسطح المباني ، ذلك أن بعض الأعداء قد هجم من فوق أسطح المباني .

بعد أن أوصلنا الحجارة ، اكتشفنا أن السطح مُؤَمَّن تمامًا ، وأنه لا داعي لبقائنا في العمارة ،لذلك ذهبت لأرى أيَّ الأماكن يحتاج إلى العون ، فوجدت مجموعة تنادي المتطوعين عند مدخل شارع شامبليون .

وقفت مع هذه المجموعة ، وكانت مجموعات البلطجية تقف على بعد مئتي متر تقريبًا ، وبيننا وبينهم دبابة وعدد من الجنود .

ظل المهاجمون يقتربون منا ، ونحن على أهبة الاستعداد .

وبعد ما يقرب من ساعتين انسحبت الدبابة من بيننا ، وانفتح الطريق أمامهم ، ولكننا كنا نفوق عددهم ، كان عددنا ضعف عددهم عدَّة مرات .

ولكنهم تقدموا نحونا ، وبدؤوا بالحديث معنا بشكل مستفز ، فبعضهم يتحدث عن بيعة أبدية لمبارك بسبب ما حققه لمصر من أمن ورخاء ، وبعضهم يتحدث عن (وقف الحال) بسبب الاعتصام ، وبعضهم يتحدث عن خراب بيته بسبب الانفلات الأمني ...!

كان مشهدًا غريبًا جدًّا ، وتكنيكًا أمنيًّا لم أره في حياتي من قبل ، فهم يحاولون إضعاف عزائمنا بهذا الأسلوب .

قلت لأصدقائي في هذا الوقت : إنها بركات وحركات السيد عمر سليمان !

المهم أنني وجدت بقائي في هذا المكان مضيعة للوقت ، لأن العدد الذي يؤمنه كبير جدًّا ، وعدد المهاجمين قليل ، لذلك انصرفت ، فوجدت المعركة باتجاه ميدان عبد المنعم رياض ما زالت مشتعلة ، بل تزداد اشتعالاً .

* الفصل الأخير في معركة الجمل تحت تمثال الشهيد

كانت الساعة قد اقتربت من الواحدة بعد منتصف الليل ، أي أننا صرنا في الساعة الأولى من يوم الخميس الثالث من فبراير .

تقدَّمْتُ ، وكلما تقدَّمْتُ أرى شبابًا يهرول حاملاً مصابًا ما إلى المستشفى الميداني ، وأذكر جيدًا أن بعض هذه الإصابات كان شديدًا جدًّا ، فأحد المحمولين كانت تسيل دماؤه على الأرض بشكل غزير .

أذكر أيضًا أن أحد المحمولين كان يصرخ بشدة لأنه كان مصابًا بحروق ، وذلك بسبب قنابل المولوتوف التي ألقاها المهاجمون .

حين وصلت للصف الأول وجدت الوضع في غاية الخطورة ، المهاجمون فوق كوبري السادس من أكتوبر ، وبعضهم على الأرض ، يلقون الحجارة والمولوتوف ، وموقعهم فوق الكوبري يعطيهم تفوقًا كبيرًا .

الأمر الرائع أن عزيمة شباب الثورة كانت لا مثيل لها ، فكانوا يلقون عليهم الحجارة بكل قوة ، برغم بُعد المسافة .

وكانوا يتقدمون بالسواتر الحديدية التي صنعوها خطوة خطوة ، ومترًا مترًا ، واستمرت المعركة بهذا الشكل منذ العصر ، وحتى الفجر ، كان الصراع على التحكم في الميدان يتم شبرًا بشبر !

في هذه الأثناء كنت أقف في الصف الأول ، ولم يكن هناك من

عمل لي سوى تحميس الشباب ، لأنني لا أستطيع أن أقذف الحجارة لكل هذه المسافة ، ولكن وجودي وسط الشباب كان يفرحهم ، وكان يفرحني أنا أيضًا ، إذ كنت أشعر بأنني أعيش لحظة يصعب عليَّ أن أعيشها مرة أخرى ، وحين يأتيني هاجس أن تكون اللحظة الأخيرة ، كنت أحس أنها لحظة تستحق أن تكون نهاية للحياة ، ولكني كنت أستكثر هذه النهاية العظيمة على نفسي !

كان المهاجمون يلقون المولوتوف بكل دناءة على شباب الثورة ، تسبب ذلك في حرق بعض الأشجار ، وتسبب كذلك في حرق بعض الممتلكات ، وتمت مطاردات على أسطح المباني ، وحسمت في النهاية لصالح شباب الثورة ، وتم تأمين جميع أسطح المباني .

ظلت المعركة مستمرة حتى اقتربت الساعة من الثالثة ، وحينها رأيت مشهدًا فريدًا ، فقد أصبح الشباب عند تمثال الشهيد عبد المنعم رياض ، وأصبحوا يحتمون بالتمثال ، والمهاجمون يلقون بقنابل المولوتوف عليهم ، فتسقط على التمثال !

يا إلهي ، يا خالق الكون ، يا رب مصر ...!

انصرنا على من يقصف تمثال الشهيد ...!

هذا الرجل قَصَفَتْهُ إسرائيل ، وها هو نظام مبارك يقصفه مرة أخرى ...!

خلال هذه الأحداث كنت ألتحف عباءة ثقيلة من شدة البرد ،

وكنت أَلُفُّ رأسي بكوفية ثقيلة لحمايتها من الأحجار لا من البرد ، وحدث ما كنت أخشاه ، إذ سقطت على رأسي (طوبة) ولكن الله سلم ، وسقطت عليَّ من الخلف .

وعرفت بعد ذلك أن بعض الإصابات كانت بسبب بعض الخائفين من التقدُّم الذين كانوا يرمون بالحجارة من مسافة بعيدة ، وبالتالي تسقط على إخوانهم في الصفوف الأولى .

* الرصاص الحي يحسم المعركة للثوَّار

بعد ذلك ، وعند الساعة الثالثة والثلث ، وبعد أن سيطرنا على الميدان سيطرة كاملة ، شاهدت بأم عيني القنَّاصة على كوبري السادس من أكتوبر ، في الجهة المقابلة للتمثال وللمتحف المصري .

لم أكن أعرف أن النذالة من الممكن أن تصل لهذه الدرجة !

لا أعرف مَن هم ، ولا يهمني أن أعرف ، ولا أعرف لأي جهة يتبعون ، ولا يهمني أن أعرف ، ولكنني أقسمت أن أروي ما حدث !

سمعت صوت الرصاص !

حين بدؤوا بإطلاق الرصاص ، استعدتُ شعور نبتة الصَّبَّار مرة أخرى !

الصَّبَّار لا يُؤْكَل !

الصَّبَّار نبتة تواجه كل حيوان يلتهمها بشوك في حلقه !

لا يأكل الصَّبَّار إلا الجمل ، ولكننا قد هزمنا جمل الحزب الوطني !

فنحن الصَّبَّار الذي لا يأكله أي حيوان ، حتى الرئيس !

للمرة الأولى في حياتي أعرف معنى صوت الرصاصة !

صوت الرصاصة ، ليس صوت انطلاقها من البندقية ، بل هو صوت استقرارها في جسد الإنسان !

سمعت صوت الرصاصة وهي تخترق بطن الشاب الواقف جواري !

لا أدري مَن هو ، ولا أعرف ما حدث له بعد ذلك ، ولا أعرف عدد الشهداء الذين سقطوا في هذه الليلة ، ولكني رأيت القنَّاصة فوق الجسر بعيني ، يصوِّبون نحو الشباب عمدًا مع سبق الإصرار والترصد ، هنا ... تحت أرجل تمثال الشهيد عبد المنعم رياض ، وليشهد التاريخ !

تذكرت آلاف أبيات الشعر في رثاء الشهداء ، وفي مديح العظماء :

كَأَنْ لَمْ يَمُتْ حَيٌّ سِواكَ ولَمْ تَقُمْ

على أَحَـدٍ إلا عَليكَ النَّـوائِحُ

لَئِنْ حَسُنَتْ فيكَ المَرَاثِي وذِكْرُهَا

فَقَدْ حَسُنَتْ مِنْ قَبْلُ فيكَ المَدَائِحُ

وقول الشاعر :

إذا مَا دَعَوْتُ الصَّـــبْرَ بَعْـدَكَ والبُكَا

أَجَابَ البُكَا طَوْعًا ولَمْ يُجِبِ الصَّـــبْرُ

فَإِن يَنْقَطِعْ مِنْكَ الرَّجَـــاءُ فَإِنَّـــهُ

سَيَبْقَى عليكَ الحُزْنُ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ

شهداء في عمر الزهور ، وفي عنفوان النخيل ، وفي جمال عصافير غيطان مصر سقطوا في هذه الليلة الليلاء ...!

كانت تلك المشاهد هي ما ألهمني أن أكتب قصيدة (شهيد) بالعامية المصرية ، بعد نجاح الثورة ، وقلت فيها :

والظُّلمْ فاضْ ...
هات طُوبة ياضْ ...
داخلين علينا البَلْطَجيَّة طوال عُراضْ ...
راكبين جمال شَبَهِ القُراضْ ...
هات طُوبة ياضْ ...
حَصَّلْني دُغْري عند عَبْ مِنْعِمْ رياضْ ...
بتقولِّي عَبْ مِنْعِمْ رياضْ ؟
مش قلت لك ...؟
كان في شهيدْ

خَلِّفْ شهيدْ

خَلِّفْ شهيدْ ...!

طَبْ إيه الجديدْ ...؟

ربَّكْ يريدْ ...!

انطلقت الرصاصات من بنادق القنَّاصة ، وبعدها بثوان ، انطلقت مجموعات من الشباب ، كل مجموعة تحمل مصابًا أو شهيدًا ...!

احتمينا بالسواتر ، وأنا مشيت ببطء باتجاه سور المتحف المصري .

وانتهت المعركة .

وانتصرنا .

لقد أصبح الميدان ملكنا ، وبعد يومين سيصبح الرأي العام معنا مرة أخرى !

* اختبارٌ صعبٌ للإعلام المصري

في نفس هذه اللحظات التي كنا نقاتل فيها ، كانت جميع التلفزيونات تندب وتبكي حسني مبارك ، وللأسف تورط في هذا الأمر العديد من الإعلاميين الذين لم يكن ينبغي لهم أن يتورطوا فيه !

كم ساء الشباب في ميدان التحرير أن تبكي إعلامية لامعة مثل منى الشاذلي بالدموع أمام الكاميرات إشفاقًا على مبارك الذي يرغب في

أن يموت وأن يدفن في تراب مصر ، في حين أن الرصاص الحي يضرب الشباب في الرأس والصدر !

كم تألم شباب الثورة ، وهم يرون جميع المذيعين في جميع القنوات تقريبًا وهم يُردِّدون نفس الكلام ، بنفس الألفاظ ، حتى أصيب المرء بحالة من الذهول ، من شدة (توارد الخواطر) بين جميع الإعلاميين والبرامج في مصر !

جابر القرموطي وسيد علي وغيرهم ...!

في هذه اللحظة كانت جميع محطات التلفزة العالمية تقف إلى جانب الثورة المصرية ...!

بل إن جميع السَّاسة في العالم كانوا يقفون مع الثورة المصرية ، بدءًا من أمريكا ، مرورًا بالاتحاد الأوروبي ، وصولاً إلى دولة مثل تركيا ، الجميع كان يطالب حسني مبارك باحترام إرادة الشعب ، ووقفت غالبية الدول العربية موقف الشيطان الأخرس كالعادة .

ومن الواجب هنا الإشارة إلى أن الدولة الوحيدة التي كانت تدعم بقاء مبارك في السلطة عَلَنًا ...

هي إسرائيل ...!

نعود إلى الميدان ...

* المستشفى الميداني ، بطولة في الظل

كان هذا ما جرى في الصفوف الأمامية ، وقد كانت هناك معركة أخرى في الصفوف الخلفية ، ولم تكن البطولات فيها أقل من معركة الصفوف الأمامية ، إنها معركة المستشفى .

يقع المستشفى في ميدان التحرير ، بجوار مطعم هارديز عند الجامعة الأمريكية .

بدأت المستشفى باستقبال الإصابات منذ الظهيرة ، أي مذ بدأ المهاجمون بإلقاء الحجارة علينا ، وفي حدود الثالثة عصرًا بدأت الأدوات الطبية والضمادات تنفد ، وبدأ الطاقم الطبي يحتال على هذا الأمر بأن يخيط الجروح بأقل قدر ممكن من الخيوط ، فمن كان يحتاج ست غرز يخيط جرحه بغرزة أو غرزتين .

أرسل المسؤولون عن المستشفى مَن يشتري مستلزمات جديدة ، ولكنهم فوجئوا بحصار مريب ، فكان البلطجية يضربون مَن يحمل أي أدوية أو مستلزمات طبية ، ثم يأخذون المستلزمات فور خروج مَن يشتريها من أي صيدلية ، ويرمونها في النيل أو في القمامة ، وكأنهم في انتظار أن يصطادوا أي أحد معه مستلزمات طبية .

عند تمام الرابعة انتهت جميع الأدوية والمستلزمات من المستشفى !

كان عدد الأطباء في المستشفى أقل من عشرة ، ولم يكن المكان يحتاج أكثر من ذلك ، ولكن مع بدء المعركة تغيرت الأمور .

عندي شهادة لمتطوعة في هذا المستشفى ، هي الصديقة العزيزة الأستاذة هيام فاضل ، وهي إعلامية معروفة ، وكانت متطوعة في المستشفى كممرضة خلال هذه الفترة .

ما حدث أنه في تمام الخامسة حضر الدكتور المسؤول ووجد الوضع على ما هو عليه ، فعمل هو وجميع الموجودين في المستشفى من أجل توصيل صرخة استغاثة إلى العالم ، وتم التواصل مع وسائل الإعلام ، وأمر الدكتور بأن يتم تصوير الإصابات بالفيديو وأن يتم رفع هذه الفيديوهات على اليوتيوب والفيس بوك .

كانت النتيجة المباشرة ارتفاع عدد الأطباء ، فأصبح عدد الأطباء مئات ، وبالتالي تم توزيعهم على عدة أماكن ، وعلى عدة مستشفيات في الصفوف الأولى عند خطوط المواجهة .

وبعدها جاء الفرج من عند الله !

بدون مقدمات ، وجد العاملون في المستشفى عربة كبيرة مليئة بكل المستلزمات التي يحتاجونها وبكميات ضخمة جدًّا ، عربة فيها ضمادات ومضادات حيوية وخيوط جراحية وبنج ... إلخ ، وجدوها أمامهم عند المستشفى ، ودخلت لهم من شارع محمد محمود ، من جهة الجامعة الأمريكية ، وبهذا تم حل المشكلتين ، مشكلة الطاقم الطبي قليل العدد ، ومشكلة المستلزمات الطبية التي انتهت .

عند منتصف الليل بدأ وصول الإصابات بالرصاص !

وكانت في البداية إصابات في الأيدي والأرجل ، ثم أصبحت بعد ذلك (بعد الثانية صباحًا) إصابات قاتلة في القلب والرأس !

تذكر الأستاذة هيام فاضل مشهدًا في قمة البطولة ، مشهد ذلك الشاب البطل ، الذي حضر بإصابة في رأسه بسبب حجر ، فخيَّطُوه ، وانطلق للجبهة مرة أخرى ، ثم عاد بإصابة أخرى ، فعالجوه ، ثم انطلق وعاد بإصابة ثالثة ، ثم رابعة ، وفي المرة الخامسة عاد برصاصة في كتفه !

الغريب ، أنهم بعد أن استخرجوا الرصاصة منه ، كان يريد أن يعود إلى الصف الأمامي لإكمال المعركة ، ولكن الطاقم الطبي اضطر إلى حجزه وحبسه في المكان لكي يمنعوه من الخروج !

من أسوأ ما حدث في هذه الليلة القبض على سيارتي إسعاف تحملان بعض البلطجية وكسر الرخام ، كإمدادات للمهاجمين !

هذا ما فعله الحزب الوطني بالبلد ، أجبر ملائكة الرحمة أن تتحول إلى شيطان رجيم !

ومن أسوأ ما واجهناه في هذه الليلة ، أننا قبضنا على الكثير من المهاجمين ، وكان الكثير منهم من أفراد الشرطة ، وبعضهم ضباط ، فقد قبضنا على ضابطين برتبة نقيب ومقدم (على ما أذكر) ، وكلاهما قَبِلَ على نفسه أن يدخل حاملاً (سنجة) يضرب بها الثوار !

لقد انتهت الليلة بانتصار الثورة ، ولكي أكون منصفًا لا بد أن

أذكر أن الصفوف الأمامية كانت عامرة بفضل الكثير من سكان الأحياء الشعبية الذين تفننوا في صنع المولوتوف ، وبفضل المئات من القادمين من المحافظات ، بالإضافة إلى الشباب المقيمين في ميدان التحرير .

ولكن الفضل الأول والأكبر في هذه الليلة كان لجماعة الإخوان المسلمين ، ولولاهم لما مرت هذه الليلة على خير ، هذه شهادة أشهدها أمام الله والتاريخ ، وأعتقد أن هناك الكثيرين يشهدونها معي .

في اليوم التالي ، خرجتُ من الميدان من أجل تصوير في إحدى الفضائيات ، وحين حاولت دخول الميدان مرة أخرى وجدت المئات من المأجورين من أنصار الرئيس المخلوع ، يحيطون بمداخل الميدان كلها ، وظللت عدَّة ساعات أتنقل من مدخل إلى مدخل ، وفي كل مدخل أجد معركة يتجمَّعُ فيها هؤلاء المأجورون على أحد الذين يحاولون الدخول ويضربونه ضربًا عنيفًا ، وفي مرة من المرات ضربوا أمامي شابًّا ظل يقسم أنه ليس متجهًا للميدان أصلاً ، وسال منه الدم بغزارة .

كنت قلقًا لأن وجهي معروف بسبب ظهوري المتكرر في الإعلام ، لذلك حرصت على أن أمشي بهدوء وبخفة ، محاولاً إخفاء وجهي بدون أن أتلثَّم كي لا أثير الشكوك ، وكنت قلقًا من أن يعرفني أحد هؤلاء فيتعرض لي بسوء .

تمكنت من الدخول ، وأصبحت أشعر بشعور نبتة الصَّبَّار دائمًا ،

ولكن بدأت أشعر بأن هذه النبتة تحمل الزهور والثمار ، وأنها تريد أن تعطي هذا الخير لمن يستحقه ، لأرضها وشعبها ، تمامًا كما أعطت المهاجمين شوكها !

بدأتُ أحسُّ بأننا سننتصر لا محالة ، وبأننا لا بد أن نضع كل هذه الطاقات الرائعة في طريق البناء .

في هذا اليوم (الخميس ٣ فبراير) بلغت صفاقة جريدة الأهرام أنها نشرت خبرًا رئيسًا في الصفحة الأولى خلاصته أن الملايين قد خرجت لمبايعة مبارك وتأييده !

كان المانشيت مكتوبًا باللون الأحمر ، فتخيلته وكأنه قد كتب بدماء شهداء ليلة البارحة !

الفصل الخامس

نِضَالٌ، وَسِيَاسَةٌ...

إذا كَانَ مِنْ أَهْلِ الخَنَا مَنْ تُخَاصِمُهْ
لَعَمْرُكَ لَنْ تُجْدي الكَريمَ مَكَارِمُهْ
ولَيْسَ بعَيْبٍ أَنْ تَرَى الكَلْبَ حَاكِمًا
بَلِ العَيْبُ تَلْقَى الشَّعْبَ لَيْسَ يُقَاوِمُهْ
بِمِصْرَ يَمُوتُ المَوْتُ والشَّعْبُ خَالدٌ
فَتَبْقَى لَهُ الحُسْنَى وتُنْسَى هَزَائِمُهْ
سِوَانَا يَهَابُ المَوْتَ حينَ يَزُورُهُ
ونَحْنُ يَفِرُّ المَوْتُ حينَ نُدَاهِمُهْ
بمِصْرَ يَعيشُ الشَّعْبُ قِصَّةَ خُلْدِهِ
ويَهْلِكُ في قَصْرِ الخِيَانَةِ حَاكِمُهْ
فَيَبْقَى برَغْمِ الدَّهْرِ طِيبُ فِعَالِنَا
وحَاكِمُنَا بالخِزْيِ تَبْقَى جَرَائِمُهْ
ويَنْفُذُ أَمْرُ الدَّهْرِ في كُلِّ أُمَّةٍ
ونَحْنُ مَعَ الدَّهْرِ الفَقيرِ نُسَاوِمُهْ
وإِنَّا لَشَعْبٌ يَهْزِمُ الظُّلْمَ صَبْرُهُ
يُطَاوِلُ أَيُّوبًا بِهِ ويُعَاظِمُهْ
فَيَصْبِرُ إِنْ كَانَ النَّفيرُ مَذَمَّةً
ويَضْرِبُ إِنْ كَانَ الزَّمَانُ يُوَائِمُهْ

بِمِصْـرَ تَـرَى شَعْبـًا يُـؤَدِّبُ حَاكِمـًا

يُجَـادِلُهُ حينـًا و حينـًا يُشَـاتِمُهْ

نُخَـلِّدُ حُكَّامـًا ، ونَقْتُـلُ بَعْضَـهُمْ

وكُـلٌّ بـذي الـدُّنْيَا لَـهُ مَـا يُلائِمُـهْ

تَرَانَـا كَخَيْـلِ العِـزِّ إنْ هَـبَّ جَامِحـًا

عَلَـى سَـقْفِ قَصْـرِ الظُّلْـمِ دَبَّـتْ قَوَائِمُـهْ

نُسَـايِرُهُ بالصَّـمْتِ ثُـمَّ نَجُـرُّهُ

إلى سَـاحَـةِ الإعْـدَامِ فـاللهُ قَاصِـمُـهْ

فَتَسْـقُطُ رَأْسُ الكَلْـبِ عِنْـدَ حِـذَائِنَا

ويُتْـرَكُ مِـنْ أجْـلِ الشَّـمَاتَةِ خَادِمُـهْ

(من قصيدة « رثاء محمد » للشاعر ، كُتبت في ٢٠٠٩/١١/١١)

* لقاء شبابي في منزل البرادعي

ظهيرة يوم الخميس ٣ فبراير ، طلب الدكتور البرادعى ترتيب لقاء مع شباب القوى السياسية في منزله بطريق مصر - الإسكندرية الصحراوي ، لم أكن متحمسًا لمغادرة الميدان في هذا التوقيت خوفًا من عدم التمكن من دخول الميدان مرة أخرى ، خاصة بعد أنباء وردتنا عن أن هناك منعًا وتعسيرًا لأمر الدخول من قبل الجيش .

حاولت الاعتذار عن الموعد ولكن الأستاذ علي البرادعي شقيق الدكتور أخبرنا أن الدكتور البرادعى يريد حضوري مع مصطفى النجار على وجه الخصوص ، وذلك لبحث التحرك في الفترة القادمة ، وللحوار حول قراءة اللحظة الراهنة .

ورافقنا في هذه الزيارة الناشط عبد المنعم إمام مسؤول المحافظات بحملة البرادعى - سابقًا - وكذلك الناشط ياسر الهواري ، وحين وصلنا لمنزل الدكتور وجدنا عددًا من النشطاء الشباب الذين شكَّلوا بعد ذلك ائتلافًا من الائتلافات العديدة لشباب الثورة ، وهم عدة أفراد بعضهم من حزب الجبهة ، وبعضهم نشطاء من حركات احتجاجية ، ومنهم بعض النشطاء السابقين بحملة دعم البرادعي ، الذين تسببوا في مشاكل جمَّة بالحملة أدت لخروجهم وانشقاقهم عن الحملة قبل الثورة بعدَّة أسابيع .

بدأ هؤلاء الشباب في الحديث وتحليل الوضع الراهن من وجهة نظرهم ، تحدَّث أحدهم وهو ناشط يساري لا أذكر اسمه ، فصدمني

سوء تقديره للموقف وهو يحاول الإيحاء للدكتور البرادعى بأنهم يسيطرون على الميدان ، وأنهم القوة الأساسية الموجودة في الميدان ، واستمر في مبالغات تنافي الواقع ، جعلتنا نتبادل الابتسامات أنا ومصطفى وعبد المنعم إمام إشفاقًا على سوء الرؤية ، وعدم قراءة الواقع بشكل صحيح لهذا الحد !

أعقبه في الحديث شاب آخر ادعى أنه من قيادات جماعة الإخوان المسلمين ، ونحن لم نسمع اسمه يومًا ، ولا نعرف هل هو أصلاً من تنظيم الإخوان أم لا ، وعرفنا بعد ذلك من بعض قيادات الإخوان أن هذا الشخص ليس من الإخوان ، وإنما هو طالب جامعي محب للإخوان ، وأنه لا يعبِّر إلا عن نفسه فقط !

وعلى نفس وتيرة تضخيم الذات ، وتخيل أشياء لا علاقة لها بالواقع أكمل هذا الشاب حديثه .

هذه المجموعة لم يكن لها في الميدان سوى إذاعة ، موَّلها أحد كبار المهندسين ، وهو رجل وطني ، محترم ، ولكن لم يكن لهم دور في سوق الأحداث في الميدان سوى هذه الإذاعة ، ولم تكن إذاعتهم هي الأهم ، بل كانت إذاعة الإخوان المسلمين أمام هارديز هي أكبر الإذاعات في الميدان !

كلام الشباب غير الدقيق جعلني أطلب الكلمة لأعقب ، وتكلمت بصراحة موجهًا حديثي للدكتور البرادعي ولكل الحاضرين وقلت : إن المبالغة في الحديث عن الثورة وتصويرها كأنها من إنجازاتنا نحن أمر

ليس دقيقًا بالمرة ، ليس هناك قيادة للميدان ، ولا يستطيع أحد أن يأمر المعتصمين بأي شيء ، ومَن يدَّعِ ذلك فهو مخطئ ، أو لا يرى ما حوله ، إن ما يحدث في التحرير أمر عظيم ، ولكننا ينبغي علينا جميعًا أن نتحلى بقدر كبير من التواضع ونحن نتحدث في هذا الأمر !

أكدتُ في كلمتي أن الثورة الآن شعبية ، وأن الشعب هو مَن يُقرر ، وأن مَن يزعُم غير ذلك يقدم صورة مغلوطة ، وكررت أكثر من مرة ضرورة أن نتواضع ونحن نتحدث في هذا الشأن !

برغم حرصي على الهدوء التام أثناء الحديث ، وبرغم انتقائي لأدق وأرق الكلمات والألفاظ ، إلا أن كلمتي أثارت حفيظة هؤلاء الشباب ، فقد أرادوا أن يقدموا أنفسهم للدكتور البرادعي كقيادات ميدانية ثورية ، وأتت كلمتي لتنسف محاولتهم ، وكان الدكتور البرادعي من الحصافة والحكمة بحيث استطاع أن يفهم ذلك ، فقد كان يتعجب جدًّا مما يقوله هؤلاء الشباب ويدَّعونه !

وأمَّن على كلامي بشدة في مسألة التواضع .

المهم أن أحدهم وهو ناشط شيوعي وكان عضوًا سابقًا بحملة البرادعي حين كنت منسقها العام ، لم يستطع تمالك نفسه ، فقاطعني بحدة وسذاجة وقال : إن عبد الرحمن يوسف لم يكن موجودًا بالمكان ، ونحن لا نراه أصلاً بيننا فكيف يحكم على الوضع وهو غائب عنه ؟

تذكرت قول المثل (البطيخة القرعة لبَّها كتير) ، ثم أجبته بهدوء شديد : يبدو أنك لا ترى يا أستاذ فلان ، وهذه مشكلتك !

لم أكن أتخيل أن المزايدة من هؤلاء من الممكن أن تصل لهذا الحد المضحك من إنكار وجودي بالميدان !

العالم كله قد رآني بدءًا من يوم ٢٥ يناير وأنا أتحدث من الميدان !

عشرات المداخلات واللقاءات !

آلاف البشر رأوني في الميدان !

هل يمكن أن ينكر ذلك عاقل ...؟

كانت خيمتنا وسط الميدان أول خيمة تنصب في الميدان أصلاً !

المهم حين قلت لهذا الشخص إنه لا يرى ، قاموا جميعًا بالاستئذان ، وقرروا الانصراف استنكارًا لكلامي ، وسمح لهم الدكتور البرادعي بالانصراف ، وانفرد بنا نحن الثلاثة ، أنا ومصطفى النجار ، وعبد المنعم إمام ، وجلسنا معه حوالي الساعة ، وتأكد لدينا تطابق وجهة نظرنا تمامًا مع وجهة نظر الدكتور البرادعي الذي قال لنا : إن الترفق بالشباب واجب ، فخبرتهم قليلة وحماسهم كبير ، ولذلك قد يكون تقديرهم للواقع غير سليم في بعض الأحيان .

واتفقنا مع الدكتور البرادعي على أن استراتيجية الثبات هي الحل ، ولكن لا مانع من فتح قنوات حوار قد تؤدي لخلخلة الأوضاع ، والخروج من النفق المظلم الذي يريد النظام إدخالنا إليه ، وتناول النقاش قراءة الواقع ، وبحث فكرة الإعلان الدستوري المؤقت ، وانصرفنا بعدها لنعود

إلى ميدان التحرير ، وفوجئنا بهؤلاء الشباب يقفون على مدخل مزرعة جرانة (حيث يسكن البرادعي) في سيارتين ، وفهمنا بعد ذلك أنهم كانوا يريدون الدخول مرة أخرى للدكتور البرادعي بعد انصرافنا ، وهذا لم يحدث ، حيث اكتفى الدكتور البرادعي بذلك اللقاء الذي جمعه بنا .

وحين وصلنا للميدان جاءنا اتصال هاتفي من أحد الزملاء أخبرنا أن عددًا من هؤلاء الشباب قد تم القبض عليه في منطقة الهرم ، وتخيَّلَ البعض أن هذا بسبب لقاء البرادعي ، وهذا كلام أظنه غير صحيح ، لأننا لو كنا مستهدفين لتم القبض علينا جميعًا ، وكل ما حدث أن حوالي سبعة أفراد من هؤلاء الشباب ذهبوا لأحد المقاهي بعد انتهاء الاجتماع ، وتجاوزوا وقت الحظر ، واشتبهت فيهم الشرطة العسكرية ، ولذلك قامت بالقبض عليهم دون أن تعرف مَن هم أصلاً !

وتناول الإعلام خبر القبض عليهم لأنهم قابلوا البرادعي ، وأنا أعتقد أن هذه المعلومة غير سليمة ، ويؤيد ذلك ما رواه لي المهندس ياسر الهواري ، وكان من ضمن المقبوض عليهم .

إن معظم هذه الائتلافات – للأسف – ظاهرة صوتية إعلامية ، وسوف تتآكل وتتلاشى ، وستنقسم على نفسها ، فهم كما يقول المثل (زي السمك ياكل بعضه) ، والأيام بيننا !

* محاولة للذهاب إلى البيت

في هذه الليلة ، وبعد خروجي من منزل الدكتور البرادعي ، خطر في بالي أن أقضي الليلة في منزلي ، فهو قريب من منزل البرادعي نسبيًّا (حوالي عشرين دقيقة) ، ولكن جاءني خبر من المنزل أن هناك أشخاصًا أغرابًا قد حاموا حول المنزل ، وسألوا عني !

حينها شعرت أن ميدان التحرير هو أكثر الأماكن أمنًا بالنسبة لي !

كانت رائحتي تفوح مني على بُعد ميل ، وكنت لم أستحم منذ عدة أيام ، ولكن قررت أن أذهب للميدان ، لأن الذين سألوا عني من الممكن أن يكونوا تابعين لأمن الدولة ، ومن الممكن أن يكونوا فرقة اغتيالات ، من الممكن أن يكونوا أي شيء في هذا الجو المضطرب الذي تمر به مصر !

عرفت بعد ذلك أن هؤلاء الأشخاص كانوا غالبًا من المخابرات ، وأنهم كانوا يريدون فتح قناة اتصال ، وذلك بأمر من عمر سليمان ، ولكنهم لم ينجحوا في العثور عليَّ .

* جمعة الرحيل ، ودور رجال الدين

في يوم الجمعة (جمعة الرحيل) تلك التي دعونا لها في البيان الذي تحدثتُ عنه سابقًا ، كان المشهد أكبر من الكلمات ، كانت أخبار

معركة الأمس قد وصلت لجزء كبير من الناس خارج الميدان ، وانعكس ذلك على عدد الحاضرين لأداء الصلاة في الميدان .

ضخامة العدد جعلت أنصار الحزب الوطني الذين يحاصروننا ينزوون كالجرذان ، ودخل الناس إلى الميدان في أمان تام .

لا يمكن تقدير عدد الحاضرين ، ولكنه كان أكبر من الثلاثاء الماضي ، أي أن العدد كان في حدود ثلاثة ملايين شخص أو أكثر .

كنت أتمنى أن يكون الإمام رجل دين من المؤسسة الرسمية ، كشيخ الأزهر ، أو المفتي ولكن للأسف ، كان موقف المؤسسة الدينية عارًا عليها ، ويشمل ذلك المؤسسات الإسلامية ، والكنيسة الأرثوذوكسية كذلك .

الميدان كان فيه الدكتور محمد سليم العوا ، وكذلك الشيخ صفوت حجازي ، وبعض الشيوخ الأزهريين الشباب ، وكان منظرهم بعمامة الأزهر يدخل البهجة لقلوب الناس بشكل لا يتصور ، فكان المعتصمون يشعرون بشيء من البركة بسبب وجودهم بيننا ليلاً ونهارًا .

لقد صمتَتْ جميع المؤسسات الدينية الرسمية ، بل إن بعضها نطق بالزور ، والتاريخ سيكتب أن العالِم المسلم الوحيد الذي نطق بالحق كان الشيخ القرضاوي ، فأفتى بوجوب المشاركة في هذه الثورة ، وبأن الاشتراك في إزاحة هذا الطاغية واجب على كل مسلم ، بل على كل مصري ، فجزاه الله خيرًا عما قدم للأمة المصرية من موقعه .

وأنا أعتقد أن مئات الآلاف قد نزلوا في هذا اليوم في محافظات مصر المختلفة بسبب كلام الشيخ يوسف .

يحكي لي الصديق العزيز ، والكاتب الموهوب الأستاذ حمدي عبد الرحيم قائلاً : « أمي يا أستاذ عبد الرحمن حين سمعت الشيخ يقول انزلوا ، أمرتني بالنزول » !

أين هذا من موقف شيوخ التيار السلفي الذين صوَّروا الثوَّار وكأنهم خوارج ...!

بعد أن انتهت الخطبة ، وبعد أن أدَّيْنا صلاة العصر جمعًا ، وبعد صلاة الغائب على أرواح الشهداء ، انطلقت الإذاعة بالسلام الجمهوري ...

يا خالق الكون ... إنَّا نُشْهِدُكَ على صمودنا ، بحق ملايين الدموع التي انهالت من كل الحضور في وقت واحد ..!

يا خالق الكون ... إنَّا نُشْهِدُكَ على أننا لن نفرط في دم الشهداء مهما فعلوا بنا ...!

كانت لحظة لا توصف ...!

ملايين الباكين الصامدين ، يرددون النشيد الوطني مع حشرجات بكائهم ...!

* اجتماع مهم في عيادة الدكتور عبد الجليل مصطفى

في نفس هذا اليوم وجدتني مطلوبًا لاجتماع في عيادة الدكتور عبد الجليل مصطفى المنسق العام للجمعية الوطنية للتغيير بجوار الميدان في باب اللوق .

منذ يوم الخامس والعشرين من يناير وأنا أُدْعَى لاجتماعات وأحاول التهرب من الحضور !

كنت أريد أن أبقى في الميدان مع الناس ، ولا رغبة لي في أن أقوم بدور القائد .

لم أتمكن من الهروب ، وحضرت الاجتماع .

وخلاصة ما دار فيه أن الدكتور محمد أبو الغار عرض علينا أمرًا مهمًّا ، فقد اتصلت به الدكتورة مشيرة خطاب وزيرة الأسرة والسكان ونقلت طلبًا من رئيس الوزراء أحمد شفيق برغبته في اللقاء اليوم ، فقال لها إنه لا يستطيع قبول طلبه إلا بعد أخذ موافقة ميدان التحرير ، وطَلَبَ إعطاءه بعض الوقت .

اتصل الدكتور أبو الغار بالدكتور عبد الجليل مصطفى منسق الجمعية الوطنية للتغيير وعقدنا اجتماعًا في عيادته ، وحضر الاجتماع معظم ممثلي القوى الوطنية ، وكذلك ممثلي الشباب ، وعرض موضوع مقابلة الفريق شفيق ، وطلب الدكتور أبو الغار الإجابة عن ثلاثة أسئلة :

أولاً : هل هناك تفويض من الجميع بالذهاب ؟

وثانيًا : مع مَن يذهب ؟ لأنه لا يريد أن يذهب وحده .

وثالثًا : ماذا يقول بالنيابة عن الجمعية ؟

وتمت الموافقة بإجماع الحاضرين بما فيهم د. محمد البلتاجي ممثل الإخوان على أن يتم اللقاء ، واقترح د. أبو الغار أن أذهب أنا معه ، وكنت - بمنتهى الأمانة - غير راغب في الذهاب ، ولكني لا أستطيع أن أقول لهذا الرجل بالذات (محمد أبو الغار) كلمة لا ...!

وافقت على الذهاب احترامًا لمقام هذا الرجل عندي ، وكانت وجهة نظره أنه يريد وجهًا شابًّا بصحبته ، وكان كلامه منطقيًّا في ضرورة أن يصحبه شاب .

تمت صياغة عدة طلبات ، الطلب الأول عاجل وهو أن تضمن حكومته أمن الميدان ، لأن بلطجية الحزب الوطني كانوا مستمرين في غاراتهم .

وكذلك أن تعلن الحكومة أن حق التظاهر السلمي والاعتصام مكفولان للمصريين .

وهناك تكليف آخر ، يتعلق بتوصيل رسالة صريحة تتعلق بشروط الجمعية الوطنية للتغيير للجلوس على طاولة التفاوض .

الشرط **الأول** : رحيل حسني مبارك عن السلطة ، إما رحيلاً ماديًّا ،

وإما رحيلاً معنويًّا سياسيًّا من خلال تفعيل المادة ١٣٩ من الدستور ، تلك المادة المتعلقة بتفويض الرئيس صلاحياته لمن يشاء من نوابه .

وكان هذا الاقتراح قد اقترحه الدكتور ضياء رشوان في مقالة في جريدة الشروق ، وقد استحسنته كثير من القوى الوطنية كمدخل لحل الأزمة ، وكمخرج لمبارك من السلطة .

والأمر **الثاني** : الاعتراف بشرعية الثورة ، وذلك من خلال عدة إجراءات ، من أهمها التعهد بعدم ملاحقة أي شخص شارك في أحداث الثورة (من المدنيين والعسكريين) .

التعهد بمحاسبة مَن اعتدى أو حرَّض على الاعتداء على الثوَّار بأي شكل من أشكال الاعتداء ، والتعهد بتحقيق المطالب السياسية للثورة .

خلال الاجتماع اتفق الجميع على ضرورة توصيل رسالة إلى قطبي النظام ، الفريق أحمد شفيق ، واللواء عمر سليمان ، وهي شروط الجمعية لبدء التفاوض .

* الاجتماع مع الفريق شفيق

ذهبت مع الدكتور أبو الغار ، بعد أن فوَّضَنَا الحاضرون بتوصيل هذه الرسالة .

كنت حريصًا على أن أذهب بملابسي المتسخة ، بال(كاب) الذي ألبسه ، بالبنطلون الجينز الذي تمزق من النوم على الرصيف ، بدون أي

مراعاة لأي شكليات ، ذهبت وكأنني ألبس زي الحرب !

وصلنا لمجلس الوزراء مع الوزيرة مشيرة خطَّاب ، وذلك بعد أن ركبنا معها سيارتها نظرًا لصعوبة الوصول لمجلس الوزراء بسبب الإجراءات الأمنية ، واستقبلنا الفريق ، وجلسنا معه ما يقرب من ساعة ونصف .

كان تفاعله مع المطلب المتعلق بالاعتراف بالثورة إيجابيًّا ، وكان على استعداد لعمل كل ما نطلبه ، أو لنقل بهذا حاول أن يوهمنا ...!

وتعهَّدَ شفيق بتطهير المنطقة حول الميدان من البلطجية ، وإعلان أن حق الاعتصام السلمي مكفول .

وبدأت مناقشة النقطة الخاصة برحيل مبارك ، واستمر النقاش حوالي ٨٠ دقيقة ، ونحن مصرُّون على رحيل مبارك ، وهو يقول إن فترة أربعة أشهر ليست طويلة بعد ٣٠ عامًا من الحكم ، وبعد أَخْذٍ وجَذْبٍ لم نصل إلى نتيجة ، وكلٌ مُصِرٌّ على رأيه ، ويبدي حججه المختلفة ، وقلنا إننا لسنا مفوضين بالتفاوض على رحيله ، وإنما نحن نحمل رسالة بأن رحيله مطلب رئيسي لا تفاوض فيه ، وقلنا إننا مستعدون أن يرحل فورًا على أن يكون ذلك بطريقة غير مهينة ، وأن ذلك لو تم ، فمن الممكن أن نحاول أن نعرض الأمر في ميدان التحرير ، وإذا وافق المعتصمون ستحل الأزمة .

كان الدكتور أبو الغار حريصًا على توضيح فكرة أن الجالسَيْنِ

أمامه لا يملكان القرار ، وكنت حريصًا على أن أَفْهَمَ الرجلَ الجالسَ أمامي .

كان الحوار معه متعبًا ، وكان من الواضح أنه مُكَبَّلٌ تمامًا ...!

وصلْتُ معه لدرجة أن أقول له :

حضرتك رجل دولة ، وتعرف معنى أن ينزل عشرة ملايين مواطن إلى الشارع ...!

فأُفَاجَأُ بأنه يرد في منطقة أخرى ، فأراه يقول : حسني مبارك رجل طيب ، وبطل أكتوبر ، ولا يستحق منا هذه النهاية أبدًا ...!

أقول له : هناك عدة ملايين في الميدان لا يمكن أن يوافقوا على هذا الأمر ...!

فيرد قائلاً : يا أخي ... إن الضباط الأحرار الذين أنهوا الحكم الملكي ، ضربوا للملك تعظيم سلام حين وضعوه على ظهر اليخت ...!

فأضطر أن أرد عليه قائلاً : إن تفويض سلطاته لنائبه تكريم كبير ، وربما لا تسمح الظروف له فيما بعد بهذا الأمر ، وقد يرتفع سقف المطالب ، فأسرعوا بالاستجابة ، (وقد كنت محقًّا ، ولو استجاب لربما أنقذ رئيسه) .

فيبدأ بالكلام عن بطل الحرب والسلام ، أن مبارك (مش وحش أوي كده ، والراجل عنده ٨٣ سنة حيفضل قد إيه يعني) ...!

تذكرت قول المثل : (أقول له أغا ، يقول لي : ولاده كام ؟) ...!

اضطررت في نهاية الأمر أن أقول له :

« حسني مبارك الذي تتحدث عنه حكم البلد حكمًا مطلقًا لمدة ثلاثين عامًا متصلة ، لم ينازعه في الحكم أحد ، ولم يخض حربًا ، ولم يبن شيئًا يُذكر ، ولم يقم سوى بالهدم المنظم لجميع مؤسسات الدولة ، ولقيم الإنسان المصري ...

يا سيادة الفريق ... لقد أمسكنا بضباط شرطة يحاولون قتلنا بسنج ومطاوي ، هذا ما فعله رئيسك بمصر » ...!

فسكت ولم ينطق ...!

كان الرجل مهذبًا جدًّا معنا ، ولكن كان من الواضح أنه (عبد المأمور) ...!

انصرفنا ، وبلَّغْنا الجمعية بما جرى في الحوار .

في نفس هذه الليلة هاتفني الدكتور ضياء رشوان ، وقال لي إن هناك اجتماعًا سيعقد مع اللواء عمر سليمان ، وأنه يريدني أن أحضر .

فطلبت منه بعض الوقت ، وهاتفت الدكتور عبد الجليل مصطفى وأخبرته ما أخبرني به الدكتور ضياء ، وعرضت عليه أن أذهب معه لأبلغ الرسالة للواء عمر سليمان .

فقال لي : اذهب .

وفي وقت متأخر من نفس الليلة ، اتصل بي الدكتور أحمد دَرَّاج ، وقال لي إن الدكتور عبد الجليل مصطفى يطلب مني عدم الذهاب للقاء اللواء عمر سليمان ، فقلت له : وأنا تحت أمره ، وطلبت منه أن يتصل بالدكتور ضياء وأن يخبره بأنني لن أذهب ، وذلك لكي يرفع الحرج عني ، وتعهد هو بأن يفعل ، وأُغْلِقَ الموضوع .

كان ذلك في الساعات الأولى من يوم السبت ٥ فبراير .

* لقاء اللواء عمر سليمان

وفي صباح اليوم التالي الأحد ٦ فبراير ، هاتفني الدكتور مصطفى النجار ، وأخبرني أن هناك اجتماعًا مع اللواء عمر سليمان ، وسنذهب أنا وهو والمهندس ياسر الهواري ، وحين سألته هل يعرف الدكتور عبد الجليل بالأمر ؟ أجاب بالإيجاب .

استغربت من الأمر ، فقد طُلِبَ مني عدم الذهاب بالأمس ، ثم يطلب مني اليوم الذهاب !

كان الأمر واضحًا ، المطلوب توصيل نفس الرسالة التي وصلناها للفريق شفيق ، الرسالة المتعلقة بشروط الجمعية لبدء أي تفاوض .

انطلقنا ثلاثتنا ، وذهبت بنفس الملابس التي ألبسها ، بنطلون جينز مهترئ ، ووصلنا إلى مجلس الوزراء حيث حُدِّدَ الاجتماع .

حين وصلنا حدث موقف سخيف .

فقد أوقفنا أمن رئاسة الوزراء بطريقة لم تعجبني ، وأمرونا بالوقوف جانبًا ، وأخذوا هوياتنا ، وبعد دقيقة لاحظت أن الأمر سيطول ، فناديت أحد الضباط وقلت له : هل سيطول الأمر ؟

فأجاب بأسلوب فيه شكل من أشكال الأمر والنهي ، فما كان مني إلا أن صرخت فيه آمرًا : أمامك خياران ، إما أن تأتينا بهوياتنا فورًا لكي ننصرف ، وإما أن يلزم كل شخص في المكان حدوده ، افتح لنا أفخم صالون عندك حالاً ، وسنجلس في انتظار انتهاء إجراءاتك معززين مكرمين ، أما أن ننتظر (على جنب) فهذا ما لن يكون ولو انطبقت السماء على الأرض ، نحن هنا لأنكم تريدون الجلوس معنا ، فأخبر مَن فوقك بذلك فورًا .

اعتبرت في تلك اللحظة أن كرامتي من كرامة الجالسين في الميدان ، وأنني لست هنا لأني أرغب في أي شيء لنفسي ، ولست قادمًا لأتسوَّل منهم أي شيء !

وتعمَّدْتُ أن أقول ذلك بلهجة آمرة شديدة العدوانية !

حين فعلت ذلك خاف الجميع ، وفتحوا لنا صالونًا ، واختصروا إجراءاتهم ، وبعد دقيقتين كنا في القاعة الرئيسية في مجلس الوزراء .

*** اجتماع موسَّع لم نتوقعه !**

وحين دخلنا ذُهلنا ...!

إنه اجتماع موسَّع ...!

وفيه أشخاص لا يمكن تخيُّل وجودهم في هذا المكان ...!

أحزاب رسمية ، وشخصيات عامة ، ووجوه قميئة مكروهة من الناس ...!

همست في أذن مصطفى : إنه اجتماع موسَّع ...!

فأجاب : وليكن ، سنوصل الرسالة وننصرف .

تحدث في الاجتماع مَن تحدث ، والتزمت غالبية الوجوه (إياها) الصمت ، وكانت إدارة اللواء عمر سليمان للقاء جيدة ، فقد استمع للجميع .

كان من ضمن الحاضرين بعض الوجوه المحترمة ، مثل السياسي الكبير الأستاذ منصور حسن ، والدكتور يحيى الجمل ، والمهندس نجيب ساويرس ، ولكن غالبية الحاضرين كانت وجوهًا غير مقبولة تمامًا .

وكان من ضمن الحاضرين أيضًا الدكتور سعد الكتاتني ، والدكتور محمد مرسي كممثلين عن جماعة الإخوان المسلمين .

طلبت الكلمة ، وكنت صريحًا فيها إلى أقصى حد .

ملخص ما قلته : إن هذا الحوار لن تكون له نتيجة تُذكر لأنه يتجاهل المطلب الرئيسي للجماهير ، وهو رحيل مبارك !

ولا تتوقعوا في ضوء تجاهلكم لهذا الأمر سوى مزيدٍ من التعقيد والتصعيد ، ولا تتوقعوا أن يقبل أحد بالتفاوض قبل رحيل مبارك ، هذا الرئيس الذي سقطت شرعيته تمامًا بعد نزول الملايين إلى الشوارع .

وقلت إن مَن يريد أن يحل هذه الأزمة لا بد أن يعترف بشرعية الثورة كذلك ، إذا كان يرغب في الحوار من الأساس ...!

كان صوتي ما يزال مبحوحًا ، بسبب استمرار الفعاليات في الميدان ، ولكن سبحان من أعطاني القوة في هذه اللحظة ، فصرخت في وجوه الجالسين بصوت جهوري .

قلت ذلك وأنا لا أعرف كيف سيكون رد الفعل ، وفوجئت بأن أحدًا لم ينطق ، حتى اللواء عمر سليمان نفسه سكت ...!

حين تحدث مصطفى النجار ، قال كلامًا أشد قسوة ، كان من ضمنه أن غالبية الحاضرين في هذه القاعة ليسوا طرفًا في الأزمة ، بل إن أغلبهم لا يجرؤ على دخول ميدان التحرير أصلاً ...!

وحين تحدث المهندس ياسر الهواري ، أثبت اعتراضه على عدم إتاحة الفرصة له في التحدث ، وقال إن هذا الحوار عبث لأنه (يتحدث عن نفسه) حتى الأمس كان معتقلاً من المخابرات العسكرية ، وكان قبلها

بأيام معتقلاً في أمن الدولة ، ورفع قميصه ليشير إلى أثر (الكلابشات) على يديه !

وأعاد التأكيد على أن الموجودين في القاعة أغلبهم جزء من المشكلة ، ومن المستحيل أن يكونوا جزءًا من الحل ...!

* اجتماع ضيق مع عمر سليمان

بعد أن انتهى الاجتماع سارع إلينا بعض كبار مساعدي اللواء عمر سليمان ، ونقلوا لنا رغبته في أن يجتمع بنا (نحن الشباب) في اجتماع ضيق .

أنا شخصيًّا وافقت لكي أوصل الرسالة ، وكان هذا أهم ما حدث في الاجتماع المصغر .

حضر الاجتماع شخصان لا أعرفهما ، رجل أربعيني ، وفتاة ثلاثينية لم ألتق بهما قبل هذا اليوم ، ولا أعرف حتى الآن مَن هما ، ولكنهما حضرا كممثلين للشباب ...!

وخلاصة هذا الاجتماع كانت كالتالي :

قلنا (مصطفى وياسر وأنا) إنه لا مجال للتنازل عن رحيل مبارك .

وكان رد السيد سليمان إن مبارك بطل حرب أكتوبر ، ولا جدوى من هذا الطلب .

قلنا له : إذن ... لا يوجد حل ، وسنستمر في التصعيد .

فرد : إذا أصررتم على هذا الطلب ، سيرحل الرجل ، وسوف يسلم البلد لإدارة عسكرية ، وسنعود إلى نقطة البدء التي كانت في عام ١٩٥٢ ...!

قلنا له : موافقون ...!

فذهل ، أو لنقل ، استغرب من أننا لم نخف من طرح هذا الحل ، ومن الممكن أن نقول إنه كان متضايقاً جدًّا من أننا مصرون على رحيل مبارك بأي شكل ، وبأي ثمن ...!

تطرقنا لبعض الموضوعات الفرعية ، من أهمها أنه أكَّدَ لنا أن الانفلات الأمني عمل مصنوع ، وأنه قد بدأ في جميع المحافظات في نفس اللحظة ...!

وأذكر أنني في هذه اللحظة قلت له إنه لا بد من حل ما يسمَّى بأمن الدولة ، ورد ردًّا غير مفهوم .

حاولت حينها أن أوضح قصدي ، فقلت له : حضرتك كنت رئيسًا لجهاز المخابرات طبقاً لقانون المخابرات ، ولكن لا يوجد في القانون أي نص أو لائحة توضح ما هي اختصاصات أمن الدولة بأي شكل من الأشكال ، هذا جهاز غير موجود في القانون المصري أساسًا ، فردَّ ردَّ مَن يريد تغيير الموضوع .

وكان من ضمن ما أثير مسألة الرقابة الدولية على الانتخابات ،

وكان رأيه فيها صادمًا ، فقد وافق على الرقابة الدولية على انتخابات الرئاسة ، أما الرقابة على انتخابات البرلمان فقد اعتبرها تدخلاً أجنبيًّا ...!

وكان من ضمن ما أثير في الاجتماع مسألة الحملة الإعلامية الشرسة على مَن في الميدان ، والتحريض البذيء علينا من قِبَل تليفزيون أنس الفقي ، ووعدنا بأن يتغير هذا الأمر بدءًا من اليوم ، وقد وفَّى بذلك فعلاً ، حتى إن التليفزيون المصري هاتفني للظهور في نفس اليوم ، ولكن ذلك لم يتيسر .

كان أهم إنجازين لهذا الاجتماع أن اللواء عمر سليمان تعهد بوقف الهجمات على الميدان أيًّا كان المسؤول عنها ، وأنه تعهد بوقف الحملة الإعلامية القذرة على الثورة المصرية ، وأعتقد أنه قد وفَّى بما تعهد به إلى حد كبير .

حين خرجت من هذا الاجتماع وجدتني أقارن بين الفريق شفيق واللواء عمر سليمان ، وهما في رأيي رجلان من رجالات مبارك ، ولكنهما مختلفان تمامًا .

كلاهما جلس معنا ، وطلب ودَّنا ، وبعد أن خرجنا من عنده بدأ بالطعن فينا .

كلاهما كشَّرَ عن أنيابه حين رفضنا التفاوض ، شفيق مَنَّ علينا بالبومبوني ، وسليمان هددنا بالتفاوض أو الانقلاب ، ثم قال إن ما يحدث في التحرير تقف خلفه جماعات إسلامية .

هذا أمر مشترك بين الرجلين .

ولكن هذا لا يمنع أن عمر سليمان رجل دولة ، وهو رجل دولة من النوع الماكر صعب المراس ، وجهه يشبه بوابة مصفحة مضادة للرصاص عازلة للصوت ، فأنت لا تستطيع أن ترى مما هو خلف وجهه إلا ما يريد لك أن تراه .

كان جالسًا معنا بمنتهى الثقة والثبات ، وعلمنا بعد ذلك أنه قد تعرض لمحاولة اغتيال قُتل فيها بعض حراسه قبل أن يجتمع بنا بعدة ساعات ، وهذا يوضح أي نوع من الرجال هو .

أما الفريق شفيق فهو رجل مهذب ، ولكني أعتقد أنه من النوع الذي يُؤْمَرُ فيطيع ...!

شفيق يشبه حسني مبارك ، أو لنقل هو من النوع الذي يفضله مبارك ، فهو موظف ولا علاقة له بعالَم السياسة !

وقد اتضح ذلك فيما تلاه من أحداث ، فقد ظهر الفريق شفيق كرجل ساذج في بعض المقابلات ، ولم يعمَّر كثيرًا في موقعه .

وأنا هنا أحب أن أنبه إلى أن هذا الرجل لم يكن ليستمر في موقعه ، ولو أن الثورة تركته في هذا الموقع لكان ذلك خطأ كبيرًا جدًّا ، وليس ذلك لأن حسني مبارك هو الذي عيَّنه ، بل لأنه عيَّنه بعد الخامس والعشرين من يناير ، بل بعد الثامن والعشرين من يناير ، وهذا أمر لا يمكن لعاقل أن يقبله !

إن شفيق – في الحقيقة – عدو للثورة ، جاء للوزارة من أجل التحايل على حركة الشارع التي طالبت بالتغيير ، ولم يعيِّنه مبارك إلا من أجل ذلك .

ينطبق هذا الكلام أيضًا على السيد عمر سليمان ، فقد عُيِّنَ نائبًا من أجل احتواء هذه الثورة ، ولكن هيهات ...!

* مشادة في عيادة الدكتور عبد الجليل

خرجنا من الاجتماع ، وذهبنا إلى عيادة الدكتور عبد الجليل مصطفى ، وحدثت بيني وبين أستاذي الدكتور عبد الجليل مشادة كلامية اضطررت على إثرها أن أنصرف بطريقة شديدة العصبية .

فوجئت في الاجتماع بمن يقول إننا لم يكن ينبغي أن نحضر هذا الاجتماع !

فكان ردي المنطقي إنني لو أُمِرْتُ بأن لا أذهب إلى هذا الاجتماع لما ذهبت ...!

فكان الرد ولكننا لو قلنا لا تذهبوا ، كنتم ستذهبون ...!

فذكَّرْتُ الحاضرين بأنني حين أُمرت بعدم الذهاب مع الدكتور ضياء رشوان امتثلت ، واستشهدت في ذلك بأخي الدكتور أحمد دراج الذي أبلغني بقرار الجمعية بأن لا أذهب .

حين انصرفت ، كنت في قمة العصبية ، فقد وجدت في الاجتماع مَن يزايد عليَّ بشكل سخيف ، وكان من الصعب عليَّ أن أتحمل ذلك .

نزل خلفي الأستاذ وائل نوَّارة (القيادي بحزب الغد) ، والأستاذ عبد المنعم إمام ، وحاولا إقناعي بأن أصعد لإكمال الاجتماع ، فرفضت رفضًا تامًّا ، وقلت لهما البركة في مصطفى النجار ، سيحكي لكم كل ما دار في الاجتماع .

بعد ذلك وجدت حملة عنيفة ضدي يقودها بعض أصحاب الأغراض ، وبعض الائتلافات التي رفضنا الانضمام إليها ، وكانت حجتهم أن أحدًا لم يفوضنا في الحديث باسم الجماهير ...!

وكأننا ادعينا أننا نمثل الجماهير ...!

لقد رفضنا الانضمام لكل الائتلافات الموجودة في (سوق) السياسة لأننا لا نمثل إلا أنفسنا ، وحين ذهبنا لهذا اللقاء كنا مكلفين رسميًّا بتوصيل رسالة من الجمعية الوطنية للتغيير ، ولم نزعم أننا نمثِّل أحدًا سوى الجمعية ...!

لقد فصَّلوا التهمة ، ثم بدؤوا الهجوم ، ولم يلتفت أحد لحقيقة الأمر ، أننا كنا رسلاً ما عليها إلا البلاغ .

لقد كانوا مجموعة تتكلم وكأنها تتكلم لأسباب ودوافع شخصية ، وبدؤوا بهجوم ينطبق عليه قول الشاعر :

إِنْ يَسْمَعُوا رِيبَةً طَارُوا بها فَرَحـــًا

مِنِّي ، ومَا سَمِعُوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا

صُمٌّ إِذَا سَمِعُوا خَيْـــرًا ذُكِرْتُ بِهِ

وإِنْ ذُكِرْتُ بِشَرٍّ عِنْدَهُمْ أَذِنُـــــوا

جَهْلاً عَلَيْنَا وجُبْنـــًا عَنْ عَدُوِّهِمُ

لَبِئْسَتِ الخُلَّتَانِ الجَهْلُ والجُبُنُ !

والحمد لله الذي جعل لي رصيدًا عند الناس ، فصدقوني ، وكذبوهم ...!

لقد بدأت هذه الائتلافات بإظهار حقيقتها ، وبدأت تصفية الحسابات ، ولكن ذلك لم يمثل فارقًا كبيرًا بالنسبة لي .

كتبت حينها مقالة في جريدة الشروق ، رويت فيها ما حدث ، وظهرت في عدة مداخلات في عدة فضائيات خلال اليومين التاليين ، ووضحتُ ما حدث بالضبط ، وبعدها ظهرت في الإذاعة الرئيسة في الميدان لكي أضع إصبعي في عين من تسول له ظنونه أو أوهامه أنني خجل من أي شيء فعلته ، وبحمد الله استقبلتني الجماهير بهتافات مدوية ، وتعمدت أن أطيل فقرتي في الشعر هذه المرة خصوصًا ، لكي أقول لكل هؤلاء : موتوا بغيظكم ...!

بعد ذلك راجعت نفسي فيما حدث ، ووجدت أنني كنت مخطئًا في قبولي الذهاب من البداية للفريق أحمد شفيق !

أذكر أنه قبل أن أذهب لاجتماع الفريق شفيق قالت لي الدكتورة رباب المهدي الناشطة السياسية لا تذهب ، وحذرتني من الذهاب ، وقد كان معها كل الحق في ذلك ، كان ينبغي عليَّ أن ألزم موقعي ككاتب وشاعر بدون أن أورط نفسي في هذا الأمر .

إذا كان الدكتور عبد الجليل مصطفى (وهو قدِّيس العمل الوطني ، الرجل المحترم ، الذي أُكِنُّ له كل الحب والتقدير والاحترام ، وأظنه يحترمني ويحبني كذلك) ، إذا كان هذا الرجل قد حدث بيني وبينه سوء تفاهم بهذا الشكل بسبب السياسة ، فما الذي يمكن أن يحدث مع الآخرين من الذين إذا خاصموا فجروا ؟!

لذلك قررت أن أبتعد قدر الإمكان عن أماكن القيادة وعن مهالك السياسة ، وحين عُرِضَ عليَّ بعد ذلك أن يُرَشَّحَ اسمي ضمن مَن يمثلون الثورة ، رفضت .

وحين عُرِضَ عليَّ – في مرحلة لاحقة – أن يُرْفَعَ اسمي كمرشح لبعض الوزارات قلت لمن هاتفني بأنني لا أرغب في أن أكون من ضمن المرشحين من الأساس .

وحين عُرِضَ عليَّ الترشح للبرلمان في بعض الدوائر التي يعرفني فيها الناس ، اعتذرت .

وحين عُرِضَ عليَّ – لاحقًا – الانضمام لبعض الأحزاب الجديدة ، قلت إنني سأدعم جميع الأحزاب الجادة ، ولكنني لن أكون عضوًا في حزب .

أنا شاعر ، ولا أريد ما يثقلني ...!

أريد أن أبقى قادرًا على التحليق والطيران ...!

وأنا تحت أمر الوطن حين يحتاجني ، ولو أن وجودي في موقع ما سيقدم خدمة لبلدي لا يقدر عليها سواي ، فسأوافق فورًا ، ولكني – في هذه اللحظة – أرى أن الأفضل لي أن أعود لموقع الكاتب والشاعر .

لقد عملت بالسياسة لأن بلدي محتل باحتلال سافر اسمه حسني مبارك ، أو الاستبداد ، أو حكم الفرد ... سمه ما شئت ، المهم أن بلدي محتل ...!

ولكنني لا أرغب في أي منصب سياسي ...!

الفصل السادس

الانْتِصَار...

عِنْدي مِنَ الأَسْبَابِ مَا يَكْفِي لإِقْنَاعي بِزَقْزَقَةِ الطُّيُورْ ...
عِنْدي مِنَ الأَسْبَابِ مَا يَكْفِي لأَبْنِيَ مَرَّةً أُخْرَى
الذي هَدَمَتْهُ كَفُّ اللَّيْلِ مِنْ صُبْحِ الجُسُورْ ...
لَنْ يَدْفَعَ الماضِي تَكَاليفَ النُّهُوضِ
ولَكِنِ الأَيَّامُ تَنْظُرُ نَحْوَنَا
وكَأَنَّهَا مَعَنَا لأَوَّلِ مَرَّةٍ رَغْمَ الحَقُودِ
ورَغْمَ آيَاتٍ يُرَتِّلُهَا الكَفُورْ ...
دَارَ الزَّمَانُ على الزَّمَانِ
ودَوْرَةُ الأَيَّامِ نَحْفَظُ سِرَّهَا
مُذْ أَقْبَلَ الهِكْسُوسُ والرُّومَانُ والتَّاتَارُ
والأَعْرَابُ والأَغْرَابُ
لا فَرْقٌ إِذَا دَارَ الزَّمَانُ
فإِنَّنَا مِثْلُ الزَّمَانِ إذا يَدُورْ
فَإِنَّنَا دَوْمًا نَدُورْ ...!
عِنْدي مِنَ الأَسْبَابِ مَا يَكْفِي لإِقْنَاعِي بِحُسْنِ الطَّالِعِ المَيْمُونِ
إِنِّي رَغْمَ كُلِّ ظَلامِنَا الماضِي أَرَى غَدَنَا يُقَهْقِهُ
صَارِخًا : في الأُفْقِ نُورْ ...!

(من قصيدة « في الأُفق نور » للشاعر ، كُتبت في ٢٠٠٩/١٢/١٩)

* ثمرات الاجتماع مع عمر سليمان تظهر

في الأيام اللاحقة اعتدل الخطاب الإعلامي الرسمي ، وبدأت جريدة الأهرام تظهر الحقيقة ولو بشكل نسبي .

لقد بدأ كلامنا مع عمر سليمان يؤتي ثماره ، ويبدو أن الرجل يحاول فعلاً أن يستجيب لما قلناه في الاجتماع من ضرورة أن يحترم الإعلام الرسمي نفسه .

حاول مبارك حينها أن يقيل بعض الشخصيات المكروهة في الحزب الوطني ، وكأن الثورة قامت من أجل إصلاح الحزب ...!

وخلال الأيام المتبقية بدأ الشارع ينقلب من التأييد لمبارك ، إلى التأييد للثورة ، وبدأ الناس يُقَدِّرون صمود الذين صمدوا في الميدان ، وبدأت حقيقة ما ظهر في يوم الأربعاء الدامي تظهر لكل الشعب المصري ، الأمر الذي أدى إلى نجاح رائع لأسبوع الصمود.

* الميدان يُبدِع

في هذه الأيام بلغت الكوميديا في الميدان أوجهًا ، فتفنن المصريون في عمل اللافتات الساخرة من مبارك ورموز نظامه وقادة إعلامه ، وأبدع المصريون في تأليف الشعارات المضحكة ، فصار الجلوس في الميدان (برغم مشقته) متعة لا تضاهيها متعة .

فأينما ذهبت تجد عملاً فنيًّا ما ، بل لقد تكونت معارض للرسم والكاريكاتير ، وندوات واحتفالات غنائية ظهرت فيها مواهب شابة في غاية الروعة والجمال .

وهناك مئات الصور والفيديوهات التقطت لأبناء هذا البلد الذين أثبتوا أن خفة الدم ما زالت فيهم برغم ثلاثين عامًا من السماجة !

كان هناك العديد من الشباب الجدد الذين نراهم لأول مرة ، يبدعون شعرًا وغناءً ، ولكني لا أنسى هنا قصيدة أخي الكريم الشاعر الكبير تميم البرغوثي (يا مصر هانت) ، وقد غناها الفنان النابه المتميز مصطفى سعيد ، وقد كنت من المحظوظين الذين شاهدوه وهو يغنيها في الميدان ، وتأثرت بها أشد التأثر ، وكانت هذه القصيد من أروع إبداعات الميدان ، ومن أجمل ما قيل في هذه الثورة العظيمة .

وكان من مطربي الميدان مطرب متميز اسمه محيي صلاح ، كان يشدو على عوده بصوته المميز والجمهور يتفاعل معه بشكل رائع .

ومما ساعد على هذا الجو الفني المتميز وجود الكثير من الفنانين الملتزمين الذين كانوا مقيمين في الميدان بشكل دائم أو شبه دائم ، من أهمهم عمرو واكد ، وخالد الصاوي ، وبسمة ، وحمزة نمرة ، ومحمد دياب ، وعمرو سلامة ، وخالد يوسف ، وغيرهم ممن لا يحضرني أسماؤهم ، وكان هؤلاء مجموعة استثنائية من غالبية الفنانين ولاعبي الكرة ومشاهير المجتمع الذين لم نرَ منهم أحدًا ؟

وكان من ضمن ما حدث في الميدان عدة قُدَّاسات بالشموع ، أقامها بعض الإخوة الأقباط ، وقد حضرتُ بعضها حين دُعيت ، وكان ذلك في رأيي أمرًا طيبًا ، يظهر أن المسيحيين ليسوا خلف البابا في موقفه ضد الثورة .

لقد كان الشعب المصري كله موجودًا في الميدان ، إلا السلفيين !

لم يكن لهم أي وجود منظم ظاهر ، لم يكن لأي هيئة تعبِّر عنهم أي شكل من أشكال الوجود ، لم يكن لهم مسيرة ، أو تظاهرة ، أو حتى لافتة .

لقد وقفوا ضد الثورة قبل اندلاعها ، وأثناء اشتعالها ، وحتى خلع الرئيس ، بل قد أفتى أحد شيوخهم بإهدار دم البرادعي والشيخ القرضاوي لما تسببا فيه من فتنة بسبب دعمهما ومباركتهما للثورة المصرية والثورات العربية .

وبعد ذلك ... ظهر السلفيون يطالبون بحصة الأسد في الغنائم ...!

الميدان الآن فيه أفضل وأشرف مَن في مصر ...!

لقد تحرك شرفاء هذا البلد ...!

بعد موقعة الجمل بدأنا نشعر بأن هناك الكثيرين (خصوصًا من القادمين من محافظات بعيدة عن القاهرة) ممن نفدت نقودهم ، وهم يحتاجون الإعانة .

كان الذي شعر بذلك هو المهندس يحيى حسين عبد الهادي ، ذلك الرجل العظيم ، الذي قال كلمة الحق في عهد الطاغية ، ودفع ثمن هذه الكلمة ، فشهد شهادة الحق في فضيحة بيع (عمر أفندي) .

كان المهندس يحيى حسين يعسُّ في الميدان ، وكان دائم الحركة ، وكانت له نظراته الثاقبة ، فاكتشف ذلك ، وأفضى به إلى الدكتور عبد الجليل مصطفى .

فأعطاه الدكتور عبد الجليل مصطفى مبلغًا من المال ، بعضه (وربما أغلبه) من مال الدكتور عبد الجليل الخاص ، واتفقا على أن ينزل المهندس يحيى إلى الميدان ليلاً لكي يعطي بعض المال لبعض من المغتربين الذي يحاولون الآن أن يبيعوا موبايلاتهم ، أو أي شيء ، لكي يتمكنوا من الصمود في أماكنهم .

نزل المهندس يحيى ، وهو يحمل في جيوبه ما يقرب من ٤٠ ألف جنيه ، وبحث يومًا كاملاً عن أي شخص يقبل أن يأخذ مليمًا واحدًا فلم يجد ...!

لقد أبى الجميع أن يأخذوا مالاً تحت أي مسمَّى ...!

فكان الحل أن نشتري بعض الأطعمة ، وبعض الأغطية (البطاطين) ، وبالفعل تم شراؤها ، وتوزيعها .

وكان من ضمن النوادر في ذلك الوقت ، أنك ترى بعض الباعة في

الميدان يبيعون (الصميت) ، وترى البائع ينادي بأعلى صوته : (معانا الكنتاكي السخن !!!) .

سخرية مما قيل عن المعتصمين في الميدان ، وأنهم يقبضون بالدولار واليورو ، وأنهم يعيشون في نعيم الوجبات الساخنة من كنتاكي ...!

كانت الأطعمة ، والأغطية ، والخيام تتدفق على الميدان من كل مصري يرغب في المساهمة في دعم هذه الثورة .

رأيت بعض معارفي يجول في الميدان ويوزع تمرًا ، وماء ، وعصائر ، وحين سألته مَن كلَّفك بذلك ؟

قال : لا أحد ...!

وحكى لي أنه – هو ومجموعة من أصدقائه – يأتون يوميًّا ، ويوزعون مثل هذه الأشياء في الميدان ، ثم يعودون إلى بيوتهم ليقفوا في اللجان الشعبية ...!

وقد هاتفني عشرات الأشخاص لكي يُنسِّقوا معي إرسال هذه الأشياء لدعم المعتصمين ، منهم الفنانة والسيدة الفاضلة ياسمين الخيام ، وقد كانت ترسل بسخاء .

ومنهم أيضًا عشرات الجنود المجهولين الذين لا يعرفهم أحد ، ولا ينتظرون سوى الأجر من الله ، والعزة لمصر .

وفي اليوم السابع من فبراير أفرج عن الناشط وائل غنيم ، وظهر في

أحد أشهر البرامج الحوارية (العاشرة مساء) ، وكانت حلقة مؤثرة جدًّا ، ساعدت في تسريع مجريات الأحداث نحو النهاية المحتومة ، وهي خلع مبارك .

*** تَوَتُّرُ الأيام الأخيرة**

في أواخر أيام الاعتصام أصبحتُ قلقًا جدًّا ، كانت المؤشرات أمامي توحي بأمر من اثنين ، إما نصر مبين ، وإما مجزرة !

كان سبب قلقي أن الأمور وصلت إلى ذروتها ، وبقاء الوضع على ما هو عليه أصبح مستحيلاً ، ولا بد من حدوث شيء ما ، فقد استهلك مبارك كل حيله ، وألقى بجميع أوراق اللعب ، وأحرق جميع مراكبه ، ولم يبق أمامه سوى الرحيل ، أو عنف مضاعف .

كانت جميع علامات النهاية ماثلة أمام العيون ، وزارة تبحث عن وزراء ولا تجدهم ، بل إن بعض من عيَّنوهم استقال بعد أيام ، أمن منفلت ، جيش في وضع مضغوط ومحرج ، باختصار ... كان الوضع كما قال الشاعر :

وما سابقٌ إلا بســـــاقٍ سليمةٍ

ولا باطشٌ إن لم تُعِنْهُ الأناملُ

لقد صار نظام مبارك بساق مشلولة لا يستطيع أن يسابق بها ، وبأنامل مقطوعة لا يستطيع أن يبطش بها !

الدعوة لأسبوع الصمود لاقت نجاحًا رائعًا ، واستجاب الناس ، وصار الرقم (مليون) رقمًا يتكرر كل يوم ، وفي المسيرات المليونية يتضاعف العدد ثلاث مرات .

بعدها تحرك المتظاهرون إلى البرلمان ، وأصبح مجلس الشعب في حيازة الثورة ، بدون اقتحامه ، وتم تجهيز الشارع لمبيت المعتصمين .

في هذه الأثناء تلاحم الشعب كله من أجل إنهاء هذا العبث الذي يجري ، وصارت الناس تقترح وتنفذ ، وصار الناس يتحدثون بمنتهى الثقة عن ضرورة الذهاب إلى القصر الجمهوري .

في يوم الخميس ٩ فبراير أخبرني مصطفى النجار أنه مدعو للقاء الرئيس مبارك هو ووائل غنيم ويريدني أن أذهب معه !

رفضت رفضًا قاطعًا ، فقال لي إن الأمر يتم في إطار تنحي مبارك عن السلطة .

فرفضت أيضًا رفضًا قاطعًا ، ونصحته بأن لا يذهب لمثل هذا اللقاء .

ما حدث بعد ذلك لا أملك تفاصيله ، ولكن ما حدث إجمالاً أن هناك اقتراحًا ما من أحد قيادات الحزب الوطني (حسام بدراوي) بأن يتنازل مبارك عن الحكم في خطاب يكون فيه شباب الميدان حوله ، أي في إطار أبوي !

ولكن الأحداث سبقت ذلك ، ولم يتم اللقاء مع الرئيس أصلاً ، وخلع دون حاجة لتوريط وجوه شابة بجواره .

* جمعة الشهداء ، وخلع الرئيس

تمت الدعوة لجمعة الشهداء ، وهي الجمعة التي توافق ١١ فبراير .

ليلتها كنتُ مُرهَقًا جدًّا ، وعاودني ألم مزمن في ظهري ، ولكني صممت على المبيت في الميدان ، وكان سببَ ذلك هاجسٌ خفيٌّ يتعلق بالخوف من (محاولة عنف أخيرة) قبل أن يرحل الطاغية ، لذلك فضلت أن أبيت في الميدان ، ليجري عليَّ ما يجري على الناس .

كانت جمعة مهيبة ، وبكى الناس بكاءً حارًّا في أثناء الدعاء للشهداء ، وتحرك الناس نحو القصر الجمهوري على استحياء .

وبعد أن أُعْلِنَ عن كلمة لمبارك ، خرج علينا للمرة الثالثة وأطال في كلامه ، ولم يحرك ساكنًا ...!

قدَّمَ تنازلات مضى وقتها ، وتنازل عن صلاحيات سُلبت منه بالفعل ، وتحدث كأنه رئيس ، ولم يكن يدرك أن الشعب قد عزله ، وأنه أصبح وحيدًا ، لا يملك أي حول ولا قوة ، ولا يستطيع أن يتحكم في أي جهاز من أجهزة الدولة .

الكل يقفز من السفينة ، والكل يحاول أن ينأى بنفسه عنه ، ولم يبق حوله من أحد سوى مَن احترق معه بنار الحكم ، ومَن تكلفة انسحابهم في هذا الوقت أعلى بكثير من تكلفة البقاء .

حين ظهر في التلفاز ، واتضح للناس في الميدان أن خطابه ليس

خطاب التنحي ، رفع عشرات الآلاف أحذيتهم وصوبوها باتجاه الشاشة العملاقة في الميدان .

تذكرت جزءًا من قصيدة (الطريدة) التي كتبتها قبل قيام الثورة بأيام ، قلت فيها :

مَا زِلْتَ تَطْمَعُ تَدْخل التَّأْرِيخَ مِنْ بَهْوِ المديحِ
وإنَّ شِعْري قالَ تَدْخُلُهُ ولكِنْ مِنْ مَوَاسيرِ الهجَاءْ ...!
في خَاطِري يَعْلُو نِدَاءْ ...
مَنْ عَاشَ فَوقَ العَرْش بالتزوير يَرْحَلُ بالحِذاءْ ...!

وحين ظهر نائبه عمر سليمان ليفصِّل ما أجمله مبارك ، وُجه بالأحذية أيضًا .

بالنسبة لي ، هرولت نحو المنصة ، وخطبت في الناس محرضًا إياهم على الزحف نحو مبنى الإذاعة والتلفزيون ، وتحركت وتحرك معي (قبلي أو بعدي لا يهم) مئات يتلوهم مئات ، وبدأ الاعتصام أمام ماسبيرو .

لقد اعتبر الميدان أن هذا الخطاب شتيمة للأمة ، ولكن لا يرد عليها إلا عمليًّا ، تمثلاً لقول الشاعر :

وتَجْهَلُ أَيْدينَا ، ويَحْلُمُ رَأْيُنَا
ونَشْتُمُ بالأَفْعَالِ لا بالتَّكَلُّمِ

لذلك ، وفي نفس هذه الليلة بدأت الجموع بالتحرك باتجاه قصر العروبة ، وفي صباح اليوم التالي تحركت عشرات الألوف باتجاه القصر ، كأن ذلك رد عملي على شتيمة مبارك في خطابه !

إلى أن جاءت الساعة السادسة مساء ، وخرج اللواء عمر سليمان ليلقي البيان المقتضب الذي أعلن فيه تخلي مبارك عن رئاسة الجمهورية ، وأنه قد أوكل الأمر للمجلس الأعلى للقوات المسلحة .

وانفجرت الشوارع بالبشر ...

احتفال مهيب ، مختلف ...

ليس كاحتفالات الكرة ، وليس كالموالد ، وليس كالأعراس ...

الناس في الشوارع وجوههم مختلفة ، ليسوا مدعوين لهذا العرس ، بل كل واحد منهم (عريس) ...!

الكل شريك في الإنجاز ، والكل فخور بنفسه وبمن حوله ... ملايين البشر يبدؤون صفحة جديدة في نفس اللحظة ...

في هذه اللحظات شعرت أن نبتة الصَّبَّار جاهزة لكي تعطي الزهور والثمار ...!

لم يكن أحد يتخيل أن ظل هذا الرجل (مبارك) ثقيل إلى هذا الحد ، ولم يكن أحد يتخيل أن يتجسد الظلم في وجه إنسان إلى هذه الدرجة ...

يظن البعض أن حسني مبارك قد تنحى عن الحكم ، وأنا أقول – بكل جزم – إنه قد خُلِعَ من على عرشه خلعًا !

لقد تحرك جيش مصر العظيم وراء الشعب ، ونزعوا الطاغية من فوق كرسيه .

لقد قاوم هذا الجيش كل الضغوط التي تعرَّض لها من أجل إطلاق الرصاص على الشعب المصري في ميدان التحرير ، وفي سائر مدن مصر .

ولا يحسبن أحد أن حسني مبارك رجل عظيم ، تنحى حقنًا للدماء ، بل هو سفاح رجيم ، حاول طوال أسبوعين توريط الجيش في مذبحة قذرة لكي يظل جاثمًا على عرش مصر ، لقد ضغط بكل طرق الترغيب والترهيب على قيادات الجيش من أجل أن يدكُّوا الميدان دكًّا !

لقد صمدت قيادة الجيش ، وصمد ضباطه ، وصف ضباطه ، وعساكره ، في وجه هذا العُتُلِّ الذي كان مستعدًّا لقتل الآلاف من أجل أن يطول حكمه .

لقد كان كل هدف هذا الرجل في أيامه الأخيرة أن يرحل بكرامة ، وشاء الله العلي القدير أن يرحل بإهانة لا يتخيلها أحد . إن هذا الرجل ينطبق عليه قول المثل (زرعت سجرة « لو كان » ، وسقيتها بميِّة « يا ريت » ، طرحت « ما يجيش منه » !) .

لقد بقي هذا الرجل في الحكم ثلاثين عامًا برغم عقله محدود الذكاء ، وبرغم انعدام كفاءته ، وقد لا يكون هناك من تفسير لطول بقائه سوى قول المثل : (ابن الهبلة يعيش أكتر) ...!

إن أكبر عقوبة لمبارك لم تكن خلعه ، ولم تكن سجنه ، بل هي – في رأيي – أنه شاهد بعينيه حكم التاريخ عليه ...!

غالبية الحكام يحكم عليهم التاريخ بعد موتهم ، أما هذا الرجل فقد مدَّ الله في عمره لكي يرى اسمه يشطب من فوق كل اللافتات التي وضعت زورًا على المدارس والمكتبات والجسور ومحطات المترو والمستشفيات والمصانع والمساكن والجوائز ، وعلى سائر المشاريع الوطنية ...!

ما زال لجمال عبد الناصر مؤيدون ، ومازال للسادات محبون ، أما مبارك فلا يكاد يجد أحدًا يقف إلى جواره ، وهذا هو حكم التاريخ عليه ، رآه بعينيه قبل أن يرحل ، وهذه أقسى عقوبة ...!

إن هذه الثورة ثورة شباب بامتياز ، انضم لها الشعب ، ولكن الشباب هم مَن بدأها ، وهم مَن أصرَّ على استمرارها في لحظات تراجع من بقية الناس ، وهم مَن يدعمها حتى الآن ، وهم مَن يقوِّم سيرها بالاتجاه الصحيح .

إن الثورة ليست هبَّةً يقوم بها الشعب لمدة شهر ، بل هي عمل متواصل يستمر سنوات وسنوات .

هذه الثورة لها أهداف تحققت في أيام ، ولها أهداف ستتحقق في أشهر ، ولها أهداف ستتحقق في سنوات وسنوات .

الشباب هو مَن سيسهر على تنفيذ هذه المطالب ...!

لذلك أقول إن فرصة المشاركة في الثورة ما زالت قائمة لمن لم يشترك في أحداث شهرها الأول .

إن فعل الثورة أكبر من أن يُختزل في تظاهرة أو اعتصام ، بل هو فعل البناء العاقل الحكيم ، وفعل الحب الجارف ، وفعل التلاحم الوطني الذي يحوِّل الناس إلى فريق عمل متوائم ...

إنه فعل الثورة يحوِّل مصر من مجموعة (سكان) تقابلوا في زمان ومكان ما بالصدفة ، إلى شعب عظيم عريق ، يركب سفينة تبحر في الاتجاه الصحيح ، وجميع مَن على هذه السفينة يشعر بولائه لها ، وعلى استعداد لأن يقطع يد مَن يفكر أن يخرم هذه السفينة ، لأنها ستغرق بالجميع ، ولأنه يحب هذه السفينة حبًا جمًّا ...

هذه هي الثورة ...

إنها الشيء الذي يحول مصر ملكًا لمن يحبها ...!

إن هذه النهاية الرائعة التي انتهت بها حقبة مبارك لها حكمة ، إنها رد الشعب على انحطاط فترة حكمه .

بقدر خسة هذا النظام ، بقدر ما كانت عظمة الرد ، وبقدر ما كانت الظلمة ، بقدر ما كان النور ...

إن هذه الثورة « ثورة الصَّبَّار » كانت أمرًا لازمًا لكي يثبت الشعب لنفسه وللعالمين أنه ما زال نفس الشعب العظيم الذي يستطيع أن يغير نفسه وما حوله متى شاء وكيف شاء .

إن ما فعله الشعب المصري ينطبق عليه قول الشاعر :

إذا همَّ ألقى بين عَيْنَيْهِ عَزْمَـــــهُ
ونَكَّبَ عَنْ ذِكْرِ العَــوَاقِبِ جَانِبــا
ولم يَسْتَشِرْ فِي رَأْيِهِ غـيرَ نَفْسِـــهِ
ولم يَرْضَ إلا قَايمَ السَّيْفِ صَاحِبا

كنت في هذه اللحظات أستحضر أرواح من رحلوا وهم يقاومون هذا الديكتاتور ، الدكتور أحمد صدقي الدجاني ، الفريق سعد الدين الشاذلي الذي رحل بعد أن رأى الصنم يترنح ، الدكتور محمد السيد سعيد ، الأستاذ مجدي مهنا ، والأستاذ عادل حسين ، الشاعر محمد عفيفي مطر ، وعشرات من الراحلين ، ولكن الراحل الذي كان يسيطر على فكري في هذه اللحظة وتمنيت أن يكون بيننا ، هو الدكتور عبد الوهاب المسيري رحمه الله ...!

عبدالرحمٰن يوسف

القاهرة ٢٠١١/٣/٢٩